صوفيًّا هارون

الخمايسي، أشرف.

صوفيا هارون تأليف/ أشرف الخمايسي

التصنيف: رواية

21 سم، 198 ص.

تدمك: 9789776959972

التدقيق اللغوي والإخراج الفني:

يوريكا لخدمات النشر والتوزيع

تصميم الغلاف: عبد الرحمن خلف

01288627690

eureka4publishing@gmail.com

الطبعة الثانية

رقم الإيداع: 2022/7629

جميع الحقوق محفوظة و يحظر طبع أو تصوير أو تخزين أى جزء من الكتاب بأية وسيلة من وسائل تخزين المعلومات إلا بإذن كتابى صريح من الناشر

صوفيًّا هارون

أشرف الخمايسي

إلى أصحاب السمو

أهدي هذه الرِّواية بشكل خاص إلـى الـزَّهرة الأنـدَلسيَّة وفتـاة الكتب: منى موسى؛ وقد كان روحها مُحلِّقًا حولي وأنا أكتب الشَّخصيَّة الرَّئيسة لهذا العمل.

- 1 -

تصعد السَّيدة مريم مكرم نعيم درجات السُّلم من الطَّابق الأخير إلى السَّطح. تستبدل قدماها الدَّرجات ببطء من استيقظ بعد نوم مُجهِد بروح مُعذَّب وجسد مُتعَب. بيديها النَّحيفتَين المعروقتَين تقبض على صينيَّة مُدوَّرة أطفأ تقادمُ الزَّمن نصوعَ معدنها، وتجَعَّدت حَوافُّها (بسبب ما تعَرَّضت له من صدمات وسقطات ناجمة عن أخطاء استعمال) رغم ذلك ظَلَّت قادرة على احتواء ما تُحمَّل به من أطعمة بشكل آمن؛ نصف رغيف محشو بالمرَبَّى أو بالجبن الأبيض أو بالزُّبد المُملَّح، ربما طبق صغير من الأرز المسلوق أو المكرونة المطبوخة بالصَّلصة، وشطيرة لحم أو سمكة أو قطعة دجاج؛ يتوَسَّطها كوب بلاستيكيٌّ مليء باللبن أو بعصير من فاكهة الموسم.

فيما تصعد السَّيدة مريم مكرم نعيم الدَّرج تحافظ على اتِّزانها بصعوبة. إضاءة السُّلم تصدر عن مصباح كهربائيٍّ قديم يكاد لا يضيء لفرط ما استُنزِف نوره، مع ذلك لم تكن تخشى الزَّلل بسبب ضعف الإضاءة، فقدماها تحفظان أبعاد المسافات بين الدَّرجات وزوايا دوران السُّلم، لكنَّهما لا تحفظان مواقع القطط التي يحلو لها التَّمطِّي بين طَيَّات الدَّرجات وعلى الدَّرابزين... كانت تخشى من أن تدهس إحداها.

حدث ذلك مَرَّة، ما كان معه أن قفزت القِطَّة المدهوسة من إقعائها

وهي تموء بفزع، بذات الوقت تغرس مخالبها وأنيابها في كاحل السَّيدة مريم مكرم نعيم، التي ارتعبت وانتفض جسمها مثل شجرة تعَرَّضت لهبَّة ريح مفاجئة، فأفلتت الصِّينيَّة لتسقط بمحتوياتها.

ارتطام المعدن برخام الدَّرجات أحدث ضجيجًا حادًّا ضَخَّمه سكونُ البكور، كأنَّ العمارة تعرَّضت للقصف بقنبلة شديدة الانفجار. انطلقت القطط تركض هاربة بفوضى عارمة.

جلست السيِّدة مريم تتَحسَّس مكان العَضَّة ومكان الخَضَّة. المكان الأوَّل يدمي والثَّاني يرتعش، فوضعت يدًا على قدمها ويدًا على قلبها؛ نزف الثَّاني خوفًا بأكثر مِمَّا نزف الأوَّل دمًا.

في ذاك البكور المرعب أضافت مريم سببًا جديدًا إلى أسباب كراهيَّتها للقطط، بحيث (مهما طال بها العمر) لن تندم على كرهها لهذه المخلوقات، والتي لا تستوعب كيف يراها البعضُ بريئة! ذلك عندما عادت المخلوقات (البريئة!) من أماكن فرارها واقتربت بحذر من مكان سقوط الصِّينيَّة، تتَشمَّم الأرض بحرص الذِّئاب فيما تمُطّ رقابها كالحَيَّات؛ خطفت الأطعمة المبعثرة وانهمكت في أكلها بشراهة، ولعقت الشَّراب المسكوب. (فعلت القطط جميع ذلك دون أقَلّ إحساس بتأنيب الضَّمير).

بدءًا من لفَّة الدَّرج الأخيرة تنكشف السَّماء للسيِّدة مريم مكرم نعيم ويفعم منخراها برائحة يود البحر.

لآلاف الأيَّام المنقضية كان الصَّباح (عند اللفة الأخيرة من الدَّرج) مُبكِّرًا، حتَّى أنَّ الشَّمس لم تأخذ أهبتها بشروق كامل في أيٍّ من مَرَّات

صعود السيِّدة مريم إلى السَّطح، بيد أنَّ الفضاء دائمًا ما يعجّ بنسيم البحر مُحمَّلًا برائحة اليود.

في نهاية السُّلم باب نصفيٌّ خشبَيٌّ حُرُّ الحركة، تدفعه بجنبها الأيمن فتئنّ مُفصَّلاته بصوت يماثل مواء تلك القطط الكريهة؛ في هذه اللحظة (بالضَّبط) تتَلقَّى الإجابة (المُعتادة) على سؤالها اليَوميِّ (المُعتاد) الذي تشرع في طرحه على نفسها فور تأكُّدها من غلق باب الشَّقة ومبادرة الصُّعود.

ـ «إنَّه السَّلام».

تصعد السَّيدة مريم مكرم نعيم درجات هذا الطَّابق الوحيد بصعوبة وبطء، فتستغرق وقتًا أطول من خمس دقائق، وهو وقت طويل بالنِّسبة لصعود طابق وحيد، لكنَّه قصير بالنِّسبة لظروفها الوعرة، فقد أوشك جسمها على دخول مرحلة سِنِّ العجز، بالإضافة إلى معاناتها من مُعوِّقات عُضويِّة، رغم ذلك كانت الدَّقائق الخمسة أطول فعلًا مِمَّا يلزم لطرح سؤال، لولا أنَّ سؤالها جِدٌّ عويص.

تبدأ في طرح هذا السُّؤال على نفسها عند خروجها من الشَّقة، عندما تَحطّ الصِّينية على زاوية الدَّرابزين وتأخذ في غلق الباب؛ تعرف أنَّها لن تغيب أكثر من ثلث ساعة مع ذلك تحرص على إدارة المفتاح في المغلاق دوراته الثَّلاثة كاملة، ثُمَّ ترُجّ الباب لتتأكَّد من إغلاقه.

قد أُغلِق. غير أنَّها تحاول إدارة المفتاح من جديد؛ تتوَثَّق من أنَّ لسان المغلاق استنفد كُلَّ حركاته المتاحة.

على مدى عشرات السِّنين التي سكنت فيها السَّيدة مريم مكرم نعيم

هذه الشَّقة ظَلَّت تخاف السَّرقة. فهي وحيدة. صيد سهل لأيّ سارق. إذا شعرت بأنَّ خوفها مُبالَغ فيه تقنع نفسها بأنَّ خوفها (المبالغ فيه) أمرٌ ذو أَهَميَّة قصوى، فربما لولاه ما بذلت محاولاتها الجادَّة للتَّأمين، والتي بفضلها ها هي لم تُسرق بعد.

من أدراها؟

ربما لو تخَلَّت عن هذا الخوف (المبالغ فيه) لسُرِقت فورًا.

مع ذلك لا يريحها هذا التَّبرير المَنطقيُّ الذي تُقدِّمه لنفسها، لأنَّها تشعر بمشكلة كبيرة تتَقدَّم إلى عمق حياتها بإبحار بطيء (مثل سفينة حاويات عملاقة تدخل الميناء المزدحمة). نعم؛ إنَّها تَتَّقي السَّرقة، لكنَّها لا تتَّقي تبعات الخوف من السَّرقة؛ هذا القلق والاستنفار الدَّائمان. الأعصاب المشدودة دون هـوادة. الإحساس المتزايد بالوحدة. الخضوع المُحبِط لمزيد من اجترار الذِّكريات المُرَّة كالعلقم. إنَّ ماضيها بَلطجيٌّ جائر، اختطفها واعتقلها في وحدة ملعونة مدى الحياة. والمشكلة تكبر... فخوفها يكبر مع سِنِّها، يتوَحَّش بتوَحُّش هرمها وعجزها. ولا تعرف إن كان لهذا الخوف نهاية، هل يغادرها يومًا ما، أم يصحبها إلى حتفها الأخير؟

ولطول أرقها بلياليها المُسهدة أمكنها التَّفكير في الخوف لأبعد نقطة من أعماقه: مَاهيَّته. والعلاقة المشتركة بينها وبينه. متى بدأت، وكيف؟

لا تنسى أوَّل لقاء لها بالخوف. لأنَّه كان خوفًا كبيرًا.

ربما أكبر مِمَّا هو عليه الآن؛ لكن كانت بَنُّوتة صغيرة... قطعة لطيفة من الطُّفولة... خلاياها غَضَّة... جسمها مرن... أعضاؤها لَيِّنة...

مطاوعة... لدرجة أنَّ قلبها استوعب ذلك الخوف كاملًا دون إصابته بالتَّمزُّق. وكان عقلها على نفس الدَّرجة من المرونة والقدرة على الاستيعاب، ما إن تخاف حتَّى يسعفها بحلول فَوريَّة، قد تكون غريبة أو حتَّى شاذَّة لكن دائمًا كانت ناجعة.

الحين جاوزت السِّتين؛ لم تعد خلايا جسمها على سابق مرونتها، فقدت معظمها، أو لعَلَّها تيَبَّست، ربما عقلها شاخ، تشعر به وهو ينزوي مُحبَطًا في ركن من جمجمتها ويتكوَّم مثل كلب عجوز أجرب عاجز عن مواجهة أيّ طارئ مخيف.

قلبها أيضًا تكَلَّس، صار كآنية فخَّارية، فقد المرونة التي طالما مَكَّنته من استيعاب كِميَّات خوف إضافيَّة، ما جعل أقلَّ نسبة خوف (أكبر قليلًا من سعته الأساسيَّة) قادرة على تحطيمه دون عناء.

بعد وثوقها من إحكام غلق باب الشَّقة تستدير إلى صينيَّتها، تبذل جهدًا وهي تميل بجذعها لتَتمكَّن من رفعها مُتَّزنة عن زاوية الدَّرابزين.

ـ مريم: في أيِّ يوم من الأيَّام السِّتَّة العظيمة خلق الله الخوف؟

سؤال يغوص إلى مياهها العميقة، لكنَّه سؤال قصير لا يستلزم طرحه استنزاف خمس دقائق كاملة، ما يعني أنَّه ليس هو هذا السُّؤال الصَّباحيّ (المعتاد) الذي تبدأ في سؤاله لنفسها عند باب الشَّقة، فتتلقَّى إجابته (المعتادة) عند الباب النِّصفيّ حُرّ الحركة (الفاصل بين نهاية السُّلم وبداية السَّطح).

ما إن تغلق باب الشَّقَّة وترفع الصِّينيَّة عن الدَّرابزين وتضع قدم ساقها السَّليمة على أوَّل درجة حتَّى تبدأ في طرح السُّؤال الصَّعب

المدمدم في شعاب روحها دمدمة الدَّم في العروق:

ـ خلق الله النُّور في أوَّل يوم، وخلق السَّماء في ثاني يوم، وخلق الأرض والبحر في ثالث يوم، وفي الرَّابع خلق الشَّمس والقمر، وفي الخامس خلق الطُّيور ومخلوقات البحر، ثُمَّ خلق الإنسان في سادس يوم؛ وفي اليوم السَّابع استراح. ما هو الشَّيء الذي لم يخلقه الله قبل استراحته؟

العمارة قديمة.

يُشاع أنَّ مهندسًا إيطاليًّا وضع رسومها الهَندسيَّة، وأنَّه نفس المهندس الذي وضع الرُّسوم الهَندسيَّة لفندق سيسل، النُّزل الفخم المُفضَّل لزعماء ورؤساء ومشاهير العالم، الواقع يشير إلى أنَّ الشائعة أقرب إلى الحقيقة منها إلى الوهم، لأنَّ المظهر الخارجيّ للعمارة فخم أيضًا، ومَبنيَّة على نفس النَّسق الفلورنسيّ، وبمسحة مِعماريَّة قريبة الشَّبه من مِعماريَّة سيسل؛ تلك الشُّرفات الصَّغيرة البارزة من أقواس منحوتة في الجدران. النَّوافذ والأبواب الضَّيقة والمُطوَّلة. إفريز السَّطح الدَّائر بحلية مُكرَّرة أشبه ما تكون بنهايات أبراج القلاع.

تبدو العمارة وكأنَّها الشَّقيقة الصُّغرى لسيسل بالفعل! ذات طوابق خمسة شاهقة الارتفاع مثله، كما يليق بأبنية زمن قديم براح، قد لا تكون فسيحة أُفقيًّا لكنَّها رحبة رَأسيًّا.

بسبب ارتفاع العمارة يمكن لمن يقف على سطحها رؤية البحر.

العمارة مباركة.

فقد عرفت السَّيدة مريم مكرم نعيم أنَّ المقاول المحترم فرج أقلاديوس هو من بناها، ومعروف بين شعب الكنيسة أنَّ ذلك المقاول

نادرًا ما شَيَّد أبنية غير الكنائس، منها كنيسة مريم العذراء أُمّ الرَّبّ يسوع. وهي الكنيسة الأقرب إلى قلبها، والأقرب إلى قلب الرَّب، الرَّبُّ الذي (هو بنفسه) أمر آباء شعب المسيح ببنائها وتقديمها هَديَّة لامرأة شاء أن يطابق اسمُها اسمَها، وعذاباتُها عذاباتِها، لكن صاحبة الكنيسة عاشت حياتها طاهرة بتولًا قبل ارتقائها إلى الأمجاد السَّماويَّة بفرح، في حين ها هي تعيش مُدنَّسة بالخطيئة، ونهايتها (لو لم يرحمها الله) ستكون تعيسة.

فإن كان المقاول فرج أقلاديوس (نيح الله روحه) بنى هذه العمارة، فكيف لا تكون مباركة مهما تكَوَّرت القطط الشِّريرة على درجات سُلَّمها، وتمَطَّت على درابزينه!

- 2 -

تشرع صُوفيًّا في استقبال النَّوم مع سماعها لصوت أذان الفجر يسري إلى أذنيها خفيضًا ناعمًا من نواحي مختلفة: ناحية المرسي أبو العبَّاس. ناحية النَّبيّ دانيال. ومن نواحي أخرى لمساجد لا تعرف أسماءها ولا أماكنها.

أحيانا يُخيَّل لها أنَّه يسري من مساجد في أعالي البحر!

تُطبِق غلاف الكتاب الذي سهرت بصحبته. تزنقه بين جسمها ومُتَّكأ الذِّراع من كُرسيِّها المُتحرِّك. تدفع عجلتَيه، فيمضي بسلاسة بين نواطير حَديديَّة تعلو نهاياتها أطباق استقبال بَثّ الأقمار الصِّناعيَّة.

بعد دقيقتَين أو ثلاث تكون في قلب غرفتها.

غرفة ضَيِّقة رديئة الحال، تتنافى مع كونها موجودة على سطح عمارة فلورنسيَّة فخمة. أقيمت وسُقِفت بألواح وعوارض خَشبيَّة ذات أطوال ومساحات مختلفة.

تسحب صُوفيَّا الكتاب من مزنقه وتضعه على منضدة قديمة ذات قوائم لا زالت تتَمتَّع بالصَّلابة، رُصَّت فوقها عشرات الكتب. تدفع كُرسيَّها في اتِّجاه السَّرير. تُقرِّبه تمامًا من حافَّة المرتبة. تدنيه بحرص. وبذراعها الأيمن السَّليم وبذراعها الأيسر مُبتسر النُّموّ تحمل جسمها وتلقي به في الفراش.

انتقالها من الكرسيِّ المُتحرِّك إلى الفراش (أو العكس) لا يُمثِّل

لها مشكلة عَضليَّة، فجسمها خفيف للغاية، ليس لأنَّها نحيفة فقط، بل ولأنَّها بلا ساقَين، وربما بلا حوض.

الحَدُّ السُّفليُّ لجسم صُوفيَّا يبدو منتهيًا عند سُرَّتها.

تغلق عينَيها وتستغرق في نوم عميق طول النَّهار.

تستيقظ قبل غروب الشَّمس بقليل. ترى نور النَّهار يَعلُق في شقوق الجدران الخَشبيَّة فتنهض. تنتقل إلى كُرسيِّها، تدحرجه إلى الحَمَّام. تمارس ترتيبات راحتها ونظافتها، ثُمَّ تعود إلى المنضدة. تجد الصِّينية العامرة على حافَّتها، تأكل شيئًا من الطَّعام، وتشرب ما يحتويه الكوب من لبن أو عصير.

قبل أن تنحو إلى خارج الغرفة تخطف كتابًا من رَصَّة الكتب التي لم تقرأها بعد. تزنقه بين جنبها وذراع المسند.

ينساب الكُرسيُّ على بلاط السَّطح عائدًا بها إلى حيث تقضي الليل، يتَحرَّك بنعومة بين نواطير أطباق استقبال البَثّ: دوائر مَعدنيَّة مُوجَّهة إلى نقطة لا مَرئيَّة من السَّماء؛ كأنَّها عشرات الوجوه المُستنسَخة من وجه المسيح وهو يعاني آلام الصَّلب.

تُثبِّت كُرسيَّها في الرُّكن الأقرب إلى البحر.

مداومة صُوفيَّا على الجلوس في هذا الرُّكن تحديدًا لا يعني أنَّها تُحبّ البحر، فالسُّور الدَّائر حول السَّطح أعلى من مستوى رأسها بثلاثة أشبار تقريبًا. إنَّها لا ترى البحر حتَّى تُحبّه، وإن رأته فلن تُحبّه؛ لأنَّ معظم أبطال الرِّوايات التي قرأتها وصفوه بالانطواء والغدر، ووصموه بالتَّقلُّب.

أحمس؛ بطل رواية «رؤية عمياء لعتمة مضيئة» قال: البحر مختلف

عن جميع ما في حَيِّز وجوده. والمختلف يثير الشُّكوك والرِّيَب.

البحر يعاني الوحدة. وصُوفيَّا تداوم على الجلوس في هذا الرُّكن لتُعزِّي نفسها بأنَّ كائنًا قبيحًا مثلها يعاني الوحدة مثلها موجود بجوارها. وأنَّها مثله: مختلفة؛ وإن اختلفت عنه بقبح مظهرها.

بسبب قبحها الشَّنيع لا أحد يزورها أو يطلّ عليها، ليس سوى المرأة الكئيبة المَدعوَّة مريم، القبيحة مثلها ومثل البحر.

تعرف صُوفيَّا أنَّها قبيحة.

بمُتَّكأ الذِّراع من كُرسيِّها جيب جِلديٌّ تدُسّ فيه صورة صغيرة بهتت ألوانها، التُقِطت لها استيفاءً لأوراق التحاقها بالمدرسة الابتدائيَّة وهي في السَّادسة من عمرها. يظهر فيها وجهها دميمًا...

بل قبيحًا. أو بالأحرى بشعًا.

كأنَّه شُوِّه بفعل قُوَّة رغبت في الانتقام منها، فأتلفت وجهها وجسمها.

صُوفيَّا لها عين واحدة طَبيعيَّة، والثَّانية ممسوحة بالبياض.. تهدَّل جلدُ جبهتها فظهرت منقوشة بارتعاشات أمواج داكنة كسولة.. صدغاها ممصوصان.. أنفها قصير مفلطح.. شفتها العليا مشقوقة مثل شفة أرنب.. وشفتها السُّفلى مُتهدِّلة مثل شفة حمار.

ملامح كاريكاتوريَّة تُعبِّر عن قبحِ وجهٍ أنثويٍّ في أوضح تَجلِّياته.

رأت الصُّورة وهي في السَّادسة من عمرها فلم تنتبه لقبحها إلَّا وهي في الرَّابعة عشرة (مع نزول دم أولى حَيضاتها) حين شعرت بأعماقها تتفَتَّق عن عذراء تفهم الجمال بطبيعتها وتشتهيه بفطرتها.

مثل أيّ عذراء ناهضة يستهويها النَّظر في المرآة فعلت ذلك، فهالها

قبح وجهها؛ لقد تنامى مع السِّنين! صار قبحًا مُروِّعا. اتَّسع فلج شفتها العليا. تدَلَّى جانباها. تهدَّلت شفتها السُّفلى أكثر، عينها المطموسة بالبياض ذابت في مقلتها. تحَوَّل وجهها لوجه مسخ آدميٍّ مرعب.

هَشَّمت المرآة واحتفظت بالصُّورة.

لم تحتفظ بالصُّورة كونها تحمل تقاطيع وجهٍ أقَلّ قبحًا من الوجه الذي رأته في المرآة، بل لأنَّها صارت مقياسها الذي لا غنى لها عنه في قابل أيَّامها العظيمة. فبين الحين والآخر تنظر فيها لتعرف إلى أيِّ مدى تبدَّلت ملامحها القبيحة بملامح أجمل.

وعلى فترات متباعدة تطلب من السَّيدة مريم مكرم نعيم أن تحضر لها مرآة. فحتَّى القبيحات لا يستغنين عن المرائى.

والله رحيم. حين زَجّ بصُوفيَّا في معتقل الإعاقة فتح لها نافذة أعلى جدار الزِّنزانة. طاقة تُمرِّر إلى محبسها الكابي الكئيب شيئًا من الهواء والنُّور.

فتح الله نافذة التَّهوية والإنارة تلك عندما انتبهت السَّيِّدة مريم مكرم نعيم (في أثناء تنظيفها لغرفة صُوفيَّا) إلى وجود كتاب قديم مضغوط بين لَوحَيين من خشب الجدار؛ ولفرط قدمه بدا لها قطعةً من نفس الخشب.

أمسكته مريم بأطراف أصابعها، وبحرص شديد سَلَّته من بين اللوحَين وأعطته لصُوفيَّا، التي قَلَّبت أوراقه بحذر واندهاش. كانت جافَّة مثل أوراق شجر خَريفيّ يمكن لأرَقّ لمسة من أدَقّ أنملة أن تُفتِّتها.

قرأت سطورًا مُتفرِّقة منه فوجدته يعرض حكاية عجيبة.

أجَّلت قراءته إلى الليل، فثَمَّة هامس أخبرها بأنَّ هذا الكتاب سيكون أنيسها في لياليها المهجورة، الدَّبقة بوحدتها المريرة.

لشَدّ ما تحتاج لأنس هذه الحكاية ليلًا.

الليل.

يكتم الظَّلام أنفاس الشَّارع فتخفت أصواته إلى أن تموت. يعلو الصَّوت المخيف: هدير الأمواج. مريع كنهيم أشباح تخرج من أعماق البحر لتلفظ أنفاسها بصخب أليم على صخور الشَّاطئ.

في تلك الليلة تحديدًا بدأت صُوفيَّا تحوُّلها من حال إلى حال.

كان الكتابُ روايةً.

انهمكت في قراءتها.. انغمست فيها.. عايشت أحداثها إلى حَدِّ الشُّعور بأنَّها غادرت السَّطح ودخلت الرِّواية.

انقضى الليل.

وبينما يسرى أذان الفجر إلى سمعها رفعت وجهها إلى السَّماء بوجه باسم.. في عينيها دموع.. تشعر بروحها خَفّ.. روحها الذي قضت سنين طويلة تحمله ثقيلًا على ظهرها، تنوء به كسلحفاة تنوء بدرقتها.

ولأوَّل مَرَّة تدخل فراشها مع تباشير الصَّباح منسجمة مع نفسها، خالية الوفاض من الأرق.

استلقت في سريرها.. ضَمَّت الرِّواية إلى صدرها.. وبكت بحرقة لأنَّها أخيرًا عثرت على أصدقاء.

لم يُقدَّر لصُوفيَّا معرفة عنوان تلك الرِّواية ولا نهايتها، لأنَّ تقادم الزَّمن عليها محشورة بين لوحَين خَشبيَّين لا يحميانها من عواصف وأمطار الأنواء، ولا من الرُّطوبة المالحة لأجواء الإسكندريَّة، تسَبَّب في تهرّؤ غلافها والأوراق الأولى والأخيرة منها.

ورغم افتقادها لمعرفة النِّهاية ظَلَّت تلك الرِّواية روايتها الأهَمّ. مفتاح شغفها بقراءة الرِّوايات، فصارت تطلب من نينة مريم المزيد منها، بحيث لا يعلو أذان فجر يوم إلَّا وقد أنهت قراءة إحداها.

- 3 -

تقطن السَّيدة مريم مكرم نعيم إحدى شقق الطَّابق الخامس من العمارة التي تشغل صُوفيًّا غرفة سطحها.

شَقَّة مُكوَّنة من غرفتَين رحبَتين، وصالة واسعة، وطرقة طويلة، وحَمَّام ومطبخ مريحَين. بساطة أثاثها وقِطعُه القليلة تمنح ساكنها المزيد من الإحساس برحابتها.

سرير سَفريٌّ صغير يشغل إحدى الغرفتَين، مع تسريحة ذات مرآة بَيضاويَّة كبيرة تستعرض الجدار المقابل له، بالإضافة إلى خزانة ملابس صغيرة بدلفتَين فقط. الغرفة الثَّانية (على البلاط)، خالية من الأثاث، تناثرت في أنحائها لفافات وكراكيب غير مستعملة. في الصَّالة كنبة صالون عتيقة نُزِعت من طقمها وانزاحت وحيدة إلى أحد الجوانب. وفي المطبخ ثَلَّاجة وبوتاجاز قديمان، وبعض الحلل والأطباق والصَّواني المُدوَّرة وأدوات المائدة.

ولا شيء آخر.

جدران الشَّقة مدهونة بلون بُنيٍّ فاتح غَمُق بمضي الوقت.

أحد جدران الصَّالة زُيِّن بعدد من صور العائلة المُقدَّسة: صورة للمسيح وحده.. صورة للعذراء وحدها.. صورة لأُمِّ النُّور وهي تحضن رضيعها السَّماويّ بحنان.. صورة لهما على ظهر أتان منقادة خلف

يوسف النَّجار.. صور أخرى لِقِدِّيسين عديدين.. والصُّورة الشَّهيرة لماري جرجس يصرع التنِّين بالحربة تحت سنابك فرسه النَّاهض بصدره إلى السَّماء. وقد أحاطت هالات الضَّوء المُدوَّرة بجميع وجوه الصُّور وإن أطفأت طبقةُ غبارٍ خفيف لمعتها.

معظم عيون من في الصُّور تنفلت من أطرها لتنظر باهتمام إلى من يجلس على كنبة الصَّالون، كأنَّها تراقبه.

لا تنظر مريم إلى هذه الصُّور، لأنَّها لا تجلس في الصَّالة، تعبرها فقط إلى المطبخ أو الحَمَّام، أو من أيِّهما إلى غرفتها، حيث تستلقي على ظهرها في سريرها الحزين وتنظر إلى مرآتها البائسة قبالته.

أضواء الفلورسنت المُتسلِّلة من أعمدة الشارع إلى داخل الغرفة عبر شيش باب الشُّرفة والنَّافذة (المغلقان بإحكام) تعكس في المرآة وجهًا طويلًا شُدَّت بشرته شَدًّا على عظام الجمجمة، فساهم نتوء عظام الوجنتَين والجبهة في إبراز طول وجهها.

عيناها ضَيِّقتان، إحداهما بدت وكأنَّها شَقٌّ في جلد جافٍّ. أنفها دقيق، لكنَّه استطال، ما جعل طرفه أشبه بقطرة دهن كبيرة تدحرجت من أسفل الجبهة إلى بين العينَين، وها هي على وشك الهطول أعلى فمها.

فمها شَقٌّ كبير بلا شفتين تقريبًا، مثل فم مومياء فرعونيَّة.

شعرها هو التَّفصيلة الوحيدة الجميلة التي تملكها (ناعم كالحرير) تتخلَّله خطوط المشيب، ينسدل على رقبتها راسمًا علامة استفهام مقلوبة، وقد جمعت أطرافه بخيط مَطَّاطيٍّ.

رقبتها طويلة طولًا شنيعًا تسَبَّب في ميل رأسها إلى كتفها الأيسر معظم الوقت، ومحاطة بحلقات من تغَضُّنات جلديَّة قبيحة.

تستلقي على ظهرها. تعقد ذراعَيها حول صدرها الضَّامر. الذِّراع السَّليمة تحيط بالذِّراع المبتسرة فتخفيها.. تسند رأسها إلى الوسادة، وتحملق في المرآة. تُفكِّر في أشياء عديدة، أهمُّها تصاريف الدُّنيا العجيبة، وكيف أنَّ يد الله تعمل معظم الوقت بما لا تفهمه! وإلَّا كيف تُفسِّر أنَّها (رُغم جمالها الأخَّاذ) توشك على إنهاء رحلة العمر وحيدة دون رفقة زَوج؟! كيف لم يُقدِم أحدهم على الزَّواج منها، في حين أنَّهم جميعًا فُتِنوا بها؟! هل انسحقوا بجمالها فشعروا بالرَّهبة من التَّقدُّم للزَّواج منها؟ أم ظَنُّوا أنَّ المرأة الجميلة جمالًا باهرًا ليس في جعبتها غير الدَّلال والتِّيه، بينما الحياة الزَّوجيَّة تحتاج إلى امرأة لا يجب أن يكون الدَّلال والتِّيه أهَمَّ ما في جعبتها؟ أم تُرى جمالها زاد عن الحَدِّ فبدت في عيون الرِّجال دمية مصنوعة أكثر منها حسناء حَقيقيَّة؟ أم يرونها قبيحة ومُسطَّحة كما ترى صورتها في المرآة المقابلة لفراشها!

لكن مريم المرآة لا تَمتّ لها بصِلة. مريم المرآة مُسطَّحة كالمرآة، ومُسطَّحة مثل جميع الصُّور المُقدَّسة المُعلَّقة على جدران الصَّالة، غير أنَّ لوجهها ملامح امرأة شِرِّيرة خاطئة تحيط برأسها سحابة معتمة؛ فيما هي (السَّيدة مريم مكرم نعيم) امرأة ذات أبعاد حَقيقيَّة تتَمدَّد في سريرها، لها أعماق تمور بذكريات قِصَّة بالغة السُّوء كانت سببًا رئيسًا في أن تنتهي بها إلى الجلوس الكريه كُلّ ليلة قبالة هذه المرأة المُسطَّحة.

مع ذلك لا تظَلّ السيِّدة مريم منتبهة طوال الوقت لمريم المرآة. فقد اعتادتها؛ ولأنَّ الاعتياد قاتل للاهتمام صارت كثيرًا ما تصرف انتباهها عنها.

لكن يحدث أن تغيم صورة مريم القبيحة في المرآة لتظهر هي (مريم مكرم نعيم) الحَقيقيَّة، بوجهها ذي الجمال الصَّارخ، ونصفها الأعلى ذي الرَّقبة الرَّائعة، والصَّدر المكتنز بثمرتَي المانجو الوافرتين، والذِّراعَين المُفعمَتين بالأنوثة.

ثُمَّ يبدأ الألم الذي لا مفر لها من الاستسلام لخروقاته الليليَّة اليَوميَّة. عندما تتماهى مريم المرآة على السَّطح العاكس فتختفي تمامًا، ويتحَوَّل هذا السَّطح إلى فراغ أبيض يشبه شاشة سينما صغيرة تأخذ في الإضاءة رويدًا رويدًا لتظهر ذكرياتها غائرة القِدم في لقطة تلو لقطة، ومشهد تلو مشهد.

فيلم روائيٌّ لا تتجاوز مُدَّة عرضه السَّاعتين بحال من الأحوال، لكن السَّيدة مريم مكرم نعيم لا تترك دوران الشَّريط ينساب دون تدَخُّل منها، إنَّها تُثبِّته عند كُلِّ لقطة وتظَلّ تحملق فيها، تُفتِّش في الرُّعب الطَّافح منها. يرتعد جلدها وتبكي.

مع كُلِّ ومضة كادر تسأل نفسها: «هل كنت أستطيع الهرب ولم أهرب؟ هل استسلمت أم قاومت إلى النِّهاية؟».

حتَّى مريم المرآة لا تترك شريط الذِّكريات ينساب على رسله، فتقطعه بدورها لتظهر بين اللقطات وهي تُصوِّب نظرات شديدة القسوة

إلى مريم مكرم نعيم، لا تكترث الأخيرة لنظرات الأولى، فقط تبتسم ابتسامة مهيضة تليق بجميلة مضطهدة لا تسعفها الحظوظ، وتعود إلى متابعة أحداث الفيلم.

في تلك اللقطة ظهرت وهي في التَّاسعة عشرة من عمرها.

طالبة جامعيَّة تدرس في كُليَّة السِّياسة والاقتصاد. تُقبِل على الدِّراسة بشغف وشراهة من يطارد طموحًا كبيرًا: أن تكون سفيرة.

ترفع مريم وجهها بعيدًا عَمَّا تستذكره من دروس، الضِّيق يَنِزّ من بين ملامحها؛ تترك مكتبها، تقطع غرفتها الواسعة (المُزيَّنة بأفخم الدِّيكورات اللائقة بغرفة مُخصَّصة لمعيشة سليلة إحدى أثرى العائلات) إلى شرفتها، تتَّكئ على الدَّرابزين بمرفقَيها، تنظر إلى أطراف أشجار الحديقة، تظهر الأشجار في مصابيح الليل كُرات شَوك ضخمة.

تُحدِّث نفسها: «أنتِ يا بنتي تَهتمِّين بمستقبلك جِدًّا، وتطمحين لأن تكوني سفيرة، شيء يضيف قيمة كبيرة إلى أسرتِك قبل أن يضيف نفس القيمة الكبيرة إليكِ، أنت تهتمِّين بمستقبلك، لكن بماذا يهتم أخوكِ وجيه؟ ماذا يتمنَّى أن يكون عليه؟ أيُّ قيمة يرغب في إضافتها لنفسه ولأسرته؟!».

تبتسم بسخرية فيما تجيب: «يهتمّ وجيه مع أصدقائه السَّيئين بمطاردة البنات، والنَّتيجة هي تَخلُّفه المتواصل عن مراحل التَّعليم، حتَّى أنَّك (وأنتِ الأصغر منه سِنًّا) سبقتِه بأكثر من مرحلة».

ثُمَّ انقبض وجهها وهي تسمع صوتها الدَّاخليّ: «أبوكِ، السَّيد

المحترم مكرم نعيم لوقا، لا يفخر بكِ كما يفخر بوجيه؛ تخَيَّلي! إنَّه يباهي نظراءه من رجال السِّياسة بوجيه، لا بكِ! كم مَرَّة سمعتِ السَّيد المحترم أباكِ يُبرِّر فشل وجيه المتواصل بأنَّ عظماء العالم من العلماء والمُفكِّرين كانوا فاشلين دراسيًّا مع ذلك غَيَّروا العالم للأفضل! كم مَرَّة رأيتِه يربت على كتف وجيه رافعًا صوته بفخر: هذا الولد سيكون في المستقبل حاجة كبيرة جِدًّا!

بالمقابل؛ ماذا يقول أبوكِ لإصدقائه إذا تكَلَّم عنكِ؟

يقول: مريم بنت حلوة، ملامح وجهها تشبه كثيرًا ملامح وجه العذراء أُمّ النُّور. إذا كانت ابنتي تشبه أُمّ النُّور فلا أشكّ في أنَّ المسيح سيمنحها قلبًا يشبه قلب مريم العذراء، فتكون زوجة صالحة وأُمًّا ممتازة».

يبدو الضِّيق وهو يخنق ملامح وجه مريم، تستدير غاضبة لتغادر الشُّرفة إلى فراشها، تستلقي فيه بعينَين مغرورقتَين بالدُّموع: «أنجح وأتفَوَّق لأكون شَخصيَّة مرموقة.. لأكون سَيِّدة مجتمع.. مع ذلك لا يراني أبي غير زوجة صالحة وأُمًّا ممتازة! امرأة عاديَّة مثل عشرات الآلاف من النِّساء العاديَّات، أمًّا آماله العظيمة فيعقدها على ابنه الفاشل، فاقد الطُّموح!».

تبتسم السَّيدة مريم مكرم نعيم ابتسامة بائسة وهي تمعن النَّظر في اللقطة التي تظهرها فتاة مُمدَّدة في فراشها تبكي بكاءً حارًّا؛ وفكَّرت في أنَّها كم كانت حمقاء وقتها؛ ماذا كان يضيرها لو فَضَّلت أن تكون زوجة صالحة وأُمًّا ممتازة؟ إلى أيّ مصير انتهى بها تمترسها بطموحها غير هذا الحزن المقيم وآلام الوحدة البشعة؟

أربعون سنة تقريبًا مقدار الفارق الزَّمني بين مريم الطَّموحة ومريم المنكسرة. بين مريم العِشرينيَّة ومريم السِّتينيَّة.

آه يا يسوع!

لو أنّك منحت مريم العشرينيَّة خبرة مريم السِّتينيَّة لتفادت جميع الآلام وعاشت سعيدة. لكنَّك لم تفعل، ولا أراك تفعل، ولا أظنُّك ستفعل. أنا أفهمك أيُّها الرَّبّ. أنت تنتقم من العالم الذي أهانك وعذَّبك قبل أن يقتلك على صليب الآلام.

ـ كيريااليسون.

تفزع. إنَّ نفسها لا تتَطهَّر أبدًا. كأنَّ نفسها الخبيثة هذه تقتنص الفرص لتحميل الرَّبّ يسوع المسؤوليَّة عمَّا انتهت إليه! والحقيقة هي أنَّه غير مسؤول البَتَّة، فكيف كان بإمكان الرَّبّ أن يمُدّ يده بالعون لطالبة تدرس في كُليَّة السِّياسة والاقتصاد؟

هل السِّياسة والاقتصاد غير عِلمَين يربطان طالبهما بالأرض، فيحولان بين روحه وبين السَّماء؟ يبتعد الله عن السياسة والاقتصاد حزينًا، ويقترب الشَّيطان منهما مسرورًا باسطًا ذراعيه، فاتحًا صدره بترحاب.

شارك الشَّيطان مريم بطولة فيلمها. وإن لم يظهر بشكله الحَقيقيّ في أيِّ لقطة فذلك لأنَّه لا يظهر في الحياة بشكله الحَقيقيّ. إنَّه يكمن في قلوب البشر، وقد كمن في قلبها، يعمل داخله بأكمل وجه، يوسوس لها بكلام ليس على ما يرام، ويطرح عليها أسئلة صعبة بنبرة هازئة.

مرَّة يسألها: لماذا لا يتزَوَّج الأخ أخته؟ ويُعقِّب: أليس جميع الكائنات الطَّبيعيَّة تفعل ذلك!

ومرَّة يسألها: إذا كانوا يستهجنون فكرة أنَّ الكون خلقته الطَّبيعة بالصُّدفة، لأنَّه لا بُدَّ لهذا الكَون المُنظَّم من خالق حسب زعمهم، فكيف لعقولهم المُتمسِّكة بالمَنطقيَّة أن تقبل فكرة وجود خالق مُنظَّم (فَذّ العبقريَّة) لا خالق له؟!

ومرَّة يسألها: لماذا أرسل الاب ابنه نطفةً في رحم امرأة فانية من سلالة حوَّاء الخاطئة، ولم يرسله إلينا رُبوبيًّا طاهرًا طهورًا مباشرة؟

ويسألها: من قال إنَّ الآب عادل إذا كان يجبرنا على مشاركته لعبة يعرف كُلَّ تفاصيلها ويُغمِّيها علينا؟

: لماذا جعل الله الدُّنيا مجموعة ألغاز؟

أسئلة كريهة جِدًّا. والمشكلة: إنَّ هذه الأسئلة (رغم كراهتها الشَّديدة) تتَمتَّع بمَوضوعيَّة. مَنطقيَّتها تُحيِّر العقل، فكان عقل الطَّالبة الجامعيَّة مريم مكرم نعيم يتحَيَّر ويتزلزل.

الحيرة بذرة التَّمرُّد.

تمَرَّد عقلها على قلبها، ورفض الانسياق له كي يقوده نحو حظيرة الإيمان، حيث هناك الرَّاعي الصَّالح يسهر على قطيعه، يحفظه من الشَّتات بعيدًا فلا تأكله الذِّئاب.

أمَّا الشَّيطان فإنَّه ذئب يكره الرُّعاة، فيصبر لهم، ويحتال عليهم.

بالصَّبر والحيلة نجح في إخراج آدم من الجَنَّة رغم انغلاق أبوابها

في وجهه بالضبَّة والمفتاح، وكذلك أخرج مريم من الكنيسة رغم انغلاق أبوابها في وجهه بالضبَّة والمفتاح.

لكن؛ مذ متى تُؤتَى الفرائس من الأبـواب! تؤتى الفرائس من القلوب.

المحتال يلعب على نقطة الضَّعف مهما احتمت فريسته بالآلهة أو ألقت بنفسها في أمنة الرُّعاة الصَّالحين.

لعب الشَّيطان بقلبها المأزوم وعَلّقه بقضية العصر حينها: المساواة بين الرَّجل والمرأة.

شغلت القَضيَّة أكبر حَيِّز من اهتماماتها؛ فكيف لطالبة جامعيَّة تدرس في إحدى كُليَّات القِمَّة ألَّا تهتَمّ بقضيَّة المساواة بين الرَّجل والمرأة إذا كان المجتمع سيعاملها هي (خرِّيجة الجامعة) بأقَلّ مِمَّا يعامل رجلًا أُمِّيًّا!

استغَلَّ الشَّيطان رفضها للتَّقاليد وهمس في أذنَيها بكلام أبشع من كُلِّ تصوُّراتها عن البشاعة: «الله ذُكوريٌّ يا مريم».

رفضت الصَّوت لأوَّل وهلة. لكن لم يكن رفضها قاطعًا. مشكلتها الكبرى هي أنَّها لم ترفض مرَّة صوت الشَّيطان رفضًا قاطعًا. فواصل كلامه الشِّرِّير: «الله يحتقر الإناث».

لم يكن صوته فحيحًا ولا عواءً ولا نباحًا كما تصوره كتب الدِّين، بل كان حانيًا كصوت أُمٍّ رؤوم تأسى لحال ابنتها الوحيدة.

المحتال ذئبٌ صبور، مبدع بطبعه؛ فسمعته يهمس بصوت مشفق: «لماذا يُصرّ الله على العزوبيَّة إذا كان يمكنه خلق إلهة تليق به تؤنس

وحدته؟ هل تجدين تفسيرًا لذلك غير أنَّه يحتقر الأنثى ولو كانت إلهة؟!».

تساؤلات شديدة الطَّيش والهرطقة لم ترد لها على بال من قبل. ولطالما افتخرت بقدرتها على إطلاق أفكارها للجموح، لكن مستحيل أن تكون سمحت لها بالجموح إلى هذا المستوى المدروز بالشَّرِّ. ومهما كان اعتراضها على عدم المساواة بين الرَّجل والمرأة صارمًا فإنَّها لم تُفكِّر في الأمر بهذا المنطق الشَّيطانيّ المرعب!

استطرد الشَّيطان: «ولنفس السَّبب جعل ناسوته ذَكرًا، لا أنثى».

وواصل: «إنَّه ذُكوريٌّ يا مريم. وهب الذُّكور مجد الألوهيَّة، بينما العذراء المسكينة تستَعدّ لحيازة هذا المجد؛ المسكينة لم تحصل على شيء!».

تحريضه الملتهب اجتاح قلبها مثل قيظ صيف استوائيّ، فار دمها وصار فقَّاعات تتطاير في أوردتها كبخار المراجل، وتندفع إلى تلافيف عقلها لتتَفجَّر فيها: «حواريُّو الرَّبِّ جميعهم ذكور؛ ليس فيهم امرأة واحدة. وعندما وهب مخلوقًا القدرة على تَحدِّيه وهبها لذكر، لا لأنثى. وهبها لي: أنا الشَّيطان».

تركت مكتبها الذي تستذكر دروسها عليه وارتمت في فراشها الوثير. لم تتمَدَّد لتنام، بل جلست ضامَّة ركبتَيها إلى صدرها، عاقدة ذراعَيها حولهما. أخفت وجهها في عقدة ذراعيها وانهمكت تبكي.

الشَّمعدانات ذات اللمبات الكهربائيَّة السَّهَّارة تغمر حجرتها بأضواء خافتة تفوح بالسَّكينة، لكن قلبها ينتفض ويتقلَّص كجدار معدة مسمومة تحاول جاهدة لفظ الشَّيطان.

ـ إخرس يا شِرِّير؛ أنت خسيس.

فكَّرت في أنَّ الله لا يُفضِّل العزوبيَّة احتقارًا للزَّواج من رَبَّة. ربما لو تزَوَّج المسيح لما أمكن لأنثى مَسيحيَّة الشُّعور بأنَّه لها وحدها، رجلُها وحُبُّها وأملها؛ لن تشعر بذلك لو تزَوَّج وصار ملكًا لأخرى! وربما لم يتزَوَّج كي لا ينشغل عن إدارة الكون التي تحتاج إلى التَّفرُّغ التَّام، الزَّوجة قادرة على شغل زوجها بالتَّفاهات ولو كان الرَّبّ يسوع ذاته! ولو انشغل الرَّبُّ عنَّا أحدق الخطر بالكون، ولم يرسل الآب ابنه عبر رحم سِتّنا مريم العذراء تقليلًا من شأن ابنه الوحيد، كان يستطيع إرساله إلينا طاهرًا مُطهَّرًا طهورًا من كُلِّ إنسيَّة، لكن الآب فعل ذلك احترامًا وتقديرًا للمرأة، وجعلها أُمّ النُّور.

تَقلَّص قلبها بعنف، آلمها بشدَّة، حتَّى أنَّها رفعت وجهها عن ركبتيها وأنزلتهما عن صدرها؛ ثُمَّ شعرت بصدرها ينشَقّ، وعَلَقَة سوداء تمرق منه إلى الخارج مقذوفة كبصقة، تخترق فضاء الغرفة لتسقط فوق تسريحتها المُزوَّقة بماء الذَّهب.

رأت العلقة السَّوداء تتحَرَّك على سيقان حشرة لا تكاد تُرَى.

خنفساء!

سمعت صوت الشَّيطان يأتيها من عند الخنفساء صريرًا حادًّا: «لا تحاولي ادّعاء الإيمان. أنتِ تناقضين قناعاتك، ومن يتكَلَّم بما يناقض قناعاته يهرف. لو أراد الله الزَّواج في ذات الوقت أراد إدارة الكون سيفعل ببساطة. إنَّه الله الذي لا تعجزه الأسباب. الحقيقة لم يتزوَّج

لأنَّه يحتقر الأنثى وفقط، لا لأيّ سبب آخر».

للمَرَّة الألف، أو للمَرَّة المائة ألف ربما، تهمس السَّيدة مريم مكرم نعيم لنفسها وهي تعَضّ شفتها السُّفلى المُدلَّاة كفقرة من خرطوم فيل:

ـ لو لم تضطهدني يا أبي!

تغمض مريم مكرم نعيم عينَيها وتفتح بصيرتها، تستعيد ما تعرضه المرآة من مشاهد الذِّكريات وتأخذ في تَأمُّلها بوجدانها؛ تُقطِّع المشاهد إلى لقطات، واللقطات إلى كادرات، ثُمَّ تفحص كُلَّ كادر على حدة فحصًا دقيقًا، تُفتِّشه بحثًا عن الشَّرخ؛ متى أصيبت به؟ وأين؟ وكيف تمَدَّد واتَّسع ليتسَبَّب في انهيار حياتها بأكملها ودفنها تحت ركامها؟ أكان جبروت أبيها هو السَّبب؟ أم قسوة وجيه؟ أم جفاء أعمامها؟ أم حنان أُمِّها؟ جميعًا دهسوها بأحذيتهم! حتَّى الكنيسة ظلمتها! أو بالأحرى الآباء.

الكنيسة أنثى مظلومة.. والآباء ذكور ظَلَمَة.

لكن. كم من البنات وُضِعن في ظروف قاهرة مثل ظروفها مع ذلك تحَمَّلن الظُّلم بصبر وحُبٍّ وتفَهُّم؟

أكثر من أن يُحصَين!

وقد سَمعتْ بعضهن يقلن:

ـ الأب لا يقسو على ابنته ليأكلها، إنَّه يفعل ذلك ليحفظها من أن تُؤكَل.. الأخ كذلك.. الأعمام كذلك.. الرِّجال لا ينظرون للمرأة بدونيَّة، إنَّهم يتزَوَّجونها، ويُعدُّون لها بيتًا، في هذا البيت يراعون

خاطرها، إذا صارت أُمًّا فعيالها يحترمونها إلى حَدِّ التَّقديس، إذا تقَدَّم بها السِّنُّ تمسي جَدَّة، فيجعلونها الأيقونة المباركة للعائلة. وإذا كان الآباء في الكنيسة لا يساوون بين الرَّجل والمرأة فإنَّهم يعظون رجال الشَّعب بعدم إهدار كرامة أزواجهن.

تسمع السَّيدة مريم مكرم نعيم مريمَ المرآة تناديها بنبرة ساخطة: «اسمعيني أيَّتها القبيحة».

تفتح عينَيها وتنظر إليها بشفقة؛ فلمن يُستحَق بذل الشَّفقة إن لم تُبذَل للحُسَّاد الموتورين؟ وهي تدرك أنَّ مريم المرآة تتمَيَّز غيظًا من جمالها السَّاحق. ها هي تُحدِّق فيها بكراهية، وتفحّ كالشَّيطان: «أربعون سنة أقول لكِ دَعكِ من البحث عن الشُّروخ، لكنَّك قبيحة معتوهة، لا تُقدِّرين قيمة النَّصائح. لقد هَرمتِ يا امرأة، ولم يتبَقَّ من عمرك سوى القليل جِدًّا، فأيّ فائدة ستجنيها بمعرفة مبدأ الشَّرخ الآن!».

ـ أنا أحاول. لو عرفت وفهمت (حتى ولو قبل موتي بيوم واحد) سأرحل عن هذه الحياة راضية.

«لن تفهمي شيئا إذا كنتِ تراوغين الحقائق ولا تُصدِّقينها لمُجرَّد أنَّ الشَّيطان هو من ينطق بها».

رأت مريم الخنفساء تنتصب واقفة على ساقَيها الأخيرتين، وتتأرجح يمينًا ويسارًا كأنَّها ترقص. بدت شديدة الابتهاج بكلام مريم المرآة.

وشيش البحر يتَدفَّق إلى أذنَي السَّيدة مريم مكرم نعيم مثل حفيف أجنحة عشرات الفراشات، تنصرف باهتمامها إلى النَّظر في مشاهد

ذكرياتها، فتحملق مريم المرآة فيها باستهجان مَغِيظ، الخنفساء تفرد أجنحتها وتواصل رقصها.

نفس الأسئلة. نفس الملامة. نفس التَّبريرات. نفس العجز عن الإحاطة بمبدأ الشَّرخ.. وهكذا إلى أن تنقضي الليلة، ويرتفع آذان الفجر، هذا النِّداء الكئيب. حتَّى الكلاب تكره كآبة هذا النِّداء فترفع رؤوسها وتعوي عواء حزينًا.

يمضي الوقت. تغالبها دوخة الصُّداع. تشعر برغبة في النَّوم. تغلق عينَيها أخيرًا. ثُمَّ يرتفع قرع ناقوس كنيسة العذراء، ينسَلّ إلى أذنَيها قرعًا هزيلًا، كئيبًا بدوره، ليس ذي معنى يتعَلَّق بها كإنسانة ظلمتها الحياة.

الكنيسة تقرع الأجراس. إعلان حرب الله ضِدّ الشَّيطان، الحرب المُقدَّسة التي لا يسقط الله ولا الشيطان ضحايا لها، البشر هم ضحاياها! وهي: السَّيدة مريم مكرم نعيم؛ التي لم تسقط ضَحيَّة وانتهى الأمر، بل مُثِّل بجُثَّتها!

تتوَقَّف الخنفساء عن الرَّقص، تقفز عبر فراغ الغرفة إلى صدر مريم، تخترق الضّلوع إلى عمق القلب (في سويدائه مكمنها الآمن) حيث تنتعش وتصير شيطانًا.

لا تُحبّ السَّيدة مريم مكرم نعيم صلاة وقت باكر. إنَّها صلاة الآملين المسرورين، الرَّاغبين في اقتناص السَّعادة بمصائد يوم جديد: «المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السَّلام، وفي النَّاس المَسرَّة». وقد هجر روحُها الأعالي منذ زمن بعيد، وهبط إلى الأرض ليحاربها لا ليسالمها،

ولتسقِه الأرض الحزن لا المَسرَّة.

ومع يقينها بأنَّ روحها غير صالح لإنشاد مزامير الابتهاج بحلول يوم جديد فإنَّها تهمس:

ـ كيريااليسون.

هذا الدعاء هو الطَّقس الوحيد من صلاة البكور الذي يتوافق مع حالها كمُعذَّبة تسأل الرَّبَّ الرَّحمة.

كما أنَّها لن تتمَكَّن من النَّوم الآن، إذ عليها مباشرة القيام بواجبها اليَوميّ تجاه المسكينة صُوفيَّا.

تغادر سريرها وهي تهمس:

ـ كيريااليسون.

تتحرَّك بعمود فِقريٍّ مُتصلِّب كموميا‌ء:

ـ كيريااليسون.

بساق سليمة وأخرى قصيرة تخطو بعرجتها تجاه المطبخ:

ـ كيريااليسون.

تُعدّ شطائر الأطعمة الخفيفة وما ستملأ به كوب البلاستيك من عصائر أو لبن:

ـ كيريااليسون.

تضع ما جهَّزته في الصِّينيَّة. ترفعها. تخرج بها من المطبخ. من الصَّالة. من الشَّقَّة. خوف السَّرقة. السُّؤال المعتاد. صعود السُّلَّم. رهاب القطط. الباب النِّصفيُّ. الإجابة (المعتادة) على السؤال (المعتاد).

ثُمَّ ها هي على السَّطح. تُغرِق الشَّمسُ العالمَ بنورها حتَّى قبل أن تُشرِق. وشيش الأمواج يمتزج بهدير مُحرِّكات سَيَّارات مُبكِّرة تقطع أسفلت الكورنيش، عزف الكلارنيت الحزين تطلقه النَّوارس، ونفير سفن تشرع في الإبحار أو الرُّسوّ.

تدفع مريم باب غرفة صُوفيَّا برفق، وتشهق فزعة (كالعادة):

ـ يا إلهي. كيرياليسون.

الفوضى التي تطالعها داخل الغرفة كُلَّ صباح. صِينيَّة أمس ملقاة على الأرض. بواقي الأطعمة متناثرة على أرضيَّة الغرفة. صُوفيَّا مستغرقة في النَّوم، نصف إنسان نحيف للغاية، كأنَّها وسادة قطنيَّة مُغطَّاة بخرقة!

تنظر إليها نظرة طويلة. الخنفساء تتحرَّك في قلبها. تطقطق بأجنحتها وتسمعها تئزّ: «أنظري إلى صُوفيَّا. الأنثى التي احتقرها الله جِدًّا».

تهمس مريم مُنقِّلة نظراتها بين الأطعمة المتناثرة:

ـ ليته احتقر القطط؛ كان ذلك أفضل جِدًّا.

- 4 -

الرِّواية العظيمة تُقدِّم حلولا ممتازة لما قد يعانيه القارئ من مشاكل حَياتيَّة، مع ذلك لن تكون الرواية العظيمة مفيدة لو لم يتلقَّف هذا القارئ المُعنَّى ما تُقدِّمه من حلول ويقوم بتفعيلها. فالعالم مليء بالحلول الممتازة، لكن ما جدواها إذا افتقدت من يقوم بانتقائها وتفعيلها؟

صُوفيًّا واحدة من هؤلاء النُّدرة. وجدت حَلَّ مشكلتها في أوَّل رواية قرأتها. تلك ذات العنوان المفقود.

بطل تلك الرِّواية اسمه آدم. كُلَّما تعَرَّض لضغط من ضغوط الحياة انهزم هاربا إلى النَّوم . إلى عالم الأحلام.

في حلم من أحلامه غشي ضبابٌ أزرق عينَيه، قبل أن ينشَقّ هذا الضَّباب عن شبح يشبه عفاريت قمقم سليمان بالهيئة التي تُصوِّره عليها أفلام التِّليفزيون. كان هذا الشَّبح أحد الشَّخصيَّات الرَّئيسة في الرِّواية، لكنه (على عكس ما يجري في أفلام التِّليفزيون) لم يكن يقهقه بجنون. ولا يزعق: «شُبِّيك لُبِّيك، عبدك بين يديك». بل يتكلَّم بهدوء ورَويَّة، وينطق بحكمة.

نصح الشَّبحُ آدمَ نصيحة حفظتها صُوفيًّا عن ظهر قلب.

«... قال شبح الضَّباب الأزرق: لتسترِح يا آدم. توَقَّف عن المصارعة واستسلم. مهما قاتلت فلن تربح غير هزائم جديدة. سأخبرك عن سبب

استمرار هزائمك لتدرك أنَّ انتصارك مستحيل، فتستسلم وتستريح: أبوك وأُمُّك لم يُمدَّاك بالطَّاقة اللازمة لنزال الحياة. كان على أبيك تناول حَبَّة تين وعلى أُمِّك تناول سبع حَبَّات توت قبل اللقاء الذي كنت ثمرته. إنسان التِّين بالتُّوت قَويُّ الإرادة كإله، وعاشق حَدّ الجنون. لكنَّهما لم يفعلا، فانسحب يا آدم، واذهب تناول حَبَّة تين، وقل لزوجتك تتناول سبع حَبَّات توت، وجامعها، وأنجِبا ابنًا قَويًّا يأخذ بثأرِك...».

هل مقدارٌ مُحدَّد من خليط التِّين والتُّوت ينتج إنسانًا قَويَّ الإرادة كإله!

فكرة مجنونة من بنات أفكار كاتب روايات يحترف ركوب الخيال وتلفيق الأحداث وتنسيق الأكاذيب.

هكذا سينظر أيُّ قارئ لهذه الفكرة.

أيُّ قارئ، غير صُوفيًّا. التي جرفها إحساس جَيَّاش بصدق هذا الطَّرح الرِّوائي شديد الغرابة. وساعدتها حداثة عهدها بالقراءة على تنامي هذا الإحساس لديها، إضافة إلى هيبة قراءة الرِّواية الأولى التي لم تستسغ معها التَّفكير في أنَّ كاتبها ربما كان مهووسًا باختلاق أفكار مهووسة مثل أنَّ مقدارًا من خليط التِّين بالتُّوت ينتج إنسانًا قَويَّ الإرادة كإله!

لوهلة سطعت في ذهنها صورة حَيَّة لاهتزاز أغصان شجرة تين كبيرة، وارتعاش أوراقها العريضة بشِدَّة لتَصبّ على جسمها (وكان عاريًا!) ترابًا كثيفًا كان قد تراكم على مُسطَّحاتها قانية الاخضرار؛ وثَمَّة أشجار توت كبيرة تحيط بتَلٍّ مُتوسِّط الارتفاع غُرِس في قِمَّته صليب كبير صُنِع من جذعَي نخل يابسَين متقاطعَين.

مضت أسابيع وشهور بعد قراءة صُوفيًّا لتلك الرِّواية.

واكتمل عامٌ.

باكتمال العام اكتملت خبرة صُوفيًّا بقراءة الرِّوايات، وعرفت كيف تفهمها.

ولم يكن ثَمَّة ما يشغلها عن تَعلُّم ذلك، فهي قعيدة وفارغة، ما يعني أنَّها تمتلك الزَّمن: دقيقة دقيقة. وساعة ساعة. وشهرًا شهرًا. وسنة سنة.

على طول العام رسخ في يقينها أنَّ في تلك الرِّواية الأولى مفتاح التَّخلُّص من مأساتها.

لكن؛ حتَّى وإن عرفت المفتاح، فإنَّها واجهت صعوبة كبيرة: المفتاح ليس معها؛ مع القدر.

وهي لا تنسى أنَّها في ذلك الفجر البعيد، بعد انتهائها من قراءة تلك الرِّواية الأولى (وبينما تدفع كُرسيَّها عائدة إلى غرفتها) تمَنَّت لو كان أبوها تناول حَبَّة تين وأُمُّها تناولت سبع حَبَّات توت، فتُولَد إنسانًا ذا إرادة إلهيَّة، عاشقًا حَدَّ الجنون.

هكذا؛ من ذلك التَّمنِّي البائس تلقَّفت الحَلَّ. وصار مَحطّ رؤيتها، وإن كان في حوزة القدر.

في أوَّل صباح من العام الثَّاني (مذ بدأت صُوفيًّا تقرأ الرِّوايات) دخلت السَّيدة مريم مكرم نعيم غرفتها وهي تحمل الصينيَّة كالمعتاد. وكالمعتاد لملمت صينيَّة اليوم الفائت ومحتوياتها المبعثرة على الأرض. نظَّفت المكان والحَمَّام. رغبت في ترتيب الكتب الملقاة كيفما اتّفق على المنضدة القديمة، ثُمَّ فضَّلت ألَّا تفعل حتَّى لا تُجهِد

صُوفيًّا التي تعرف أماكن كتبها جَيِّدًا رغم بعثرتها.

بينما تهِمّ بالمغادرة سمعت نداءها:

ـ نينة.

ـ نعم.

ـ هل كان بابا وماما يُحبَّان أكل التِّين والتُّوت؟

امتعض وجه السيِّدة مريم إشفاقًا على صُوفيًّا، ودار في خلدها أنَّ الخنفساء صدقت عندما وصفتها بامرأة صغيرة احتقرها الله.

الحقيقة هي أنَّ الله لم يحتقرها فقط، بل بالغ في احتقارها! حتَّى أنَّه حشر في زورها حنجرة رجل سِكِّير.

كان صوت صُوفيًّا غليظًا أجشَّ.

أجابت السيِّدة مريم باقتضاب:

ـ نعم.

ـ من منهما أحَبَّ التِّين، ومن أحَبَّ التُّوت؟

ـ أبوكِ أحبَّ التِّين، وأنا...

ارتبكت قبل أن تستطرد:

ـ أقصد.. أُمُّك أحَبَّت التُّوت.

دمعت عينا صُوفيًّا لفرط سعادتها، وقرَّرت التَّصرُّف كما لو كانت متأكِّدة من انضباط مقدار خليط الإنقاذ: أبوها تناول حبَّة تين، وأمُّها تناولت سبع حبَّات توت، قبل لقائهما الحَميميّ.

منذ اللحظة (ودون أدني شَكّ) هي إنسان التِّين بالتُّوت، إلهيُّ الإرادة، العاشق بجنون.

تزيح الهموم عن الرُّوح لبعض الوقت، ما يجعل الحياة محتملة. لكن كان الأجمل بها هو أن تقرأ الرِّوايات لتزداد خبرة باكتشاف الطَّبع الإنسانيّ، طبعها، فتحدّ من تمَدُّد القبح الذي استوطنها، لا تتركه يغزو قلبها كما غزا جسمها ووجهها.

والحَقُّ أنَّ صُوفيًّا عندما بدأت في قراءة الرِّوايات كانت تفعل ذلك لتزجية الوقت.

وفي أثناء القراءة الدَّؤوبة صادقت العديد من الشَّخصيَّات المُحبَّبة إلى نفسها، وأخذت تكتشف معها الطَّبع الإنسانيّ بمساوئه ومحاسنه.

ثُمَّ مُؤخَّرًا صارت تقرأ لهدف أكبر وأعظم من أيِّ هدف سواه: أن تتخَلَّص من قبح وجهها، وتعدل ذراعها الملتوية وتعيد تنسيقها على أجمل ما يجب أن تكون عليه ذراع أنثى حسناء.

كما ستواصل القراءة بنهم لتحقيق المستحيل: إنبات ساقَين مكتملتَين لها.

نعم؛ إذا كانت هي بالفعل إنسان التِّين بالتُّوت (إلهيّ الإرادة) ستُحقِّق هذا المستحيل.

«... قال شبح الدُّخان الأزرق: لعلَّك تتساءل يا آدم عن سبب اختيار التِّين والتُّوت لإنتاج الإنسان إلهيّ الإرادة! سأوضِّح لك الأمر. شجرتا التِّين والتُّوت مُقدَّستان. تعلم أنَّ الله أقسم في القرآن بالتِّين.

في أوَّل صباحات العام الثَّالث (مذ بدأت صُوفيًّا في قراءة الرِّوايات) دخلت السَّيدة مريم مكرم نعيم الغرفة وهي تحمل صينيَّتها كالمعتاد. لملمت صينيَّة أمس ومحتوياتها المبعثرة على الأرض. نظَّفت أرضيَّة

الغرفة. نظَّفت الحَمَّام. رغبت في ترتيب الكتب (وقد صارت كومة على المنضدة وكومة أسفلها)، لكنَّها (كالمعتاد) لم تفعل.

بينما تغادر الغرفة سمعت الصَّوت الأجَشَّ:

ـ نينة. لا تنسي إحضار مرآة لي صباح غد.

في صباح غد.

انهارت صُوفيَّا عندما طالعت وجهها في المرآة. انخرطت بنوبة بكاء لم يسبق لها أن بكت مثله من قبل، فيما يُصدِر فمها أصواتًا مختلطة: كركبة مع حشرجة مُزجا بالتَّأوُّه والأنين.

لقد صعقتها الفرحة فور رؤيتها لوجهها في المرآة.

إنَّه جميل؛ بالأحرى فاتن!

لن يُثمِّن مقدار فرحة صُوفيَّا إلَّا من سبق له الاستسلام للموت فإذا بأحدهم ينقذه في آخر لحظة.

لا يمكن تقدير مشاعر فرحة هؤلاء إلَّا لمن مَرَّ بنفس حالاتهم، وهؤلاء فقط من يستطيعون تقدير فرحة صُوفيَّا بما عكسته لها المرآة على سطحها الصَّقيل.

رأت عينها الممسوحة أقرب ما تكون إلى عين طَبيعيَّة صحيحة. شفتها الأرنبيَّة أوشكت على الالتئام.. شفتها السُّفلى المُدلَّاة تشتَدّ وتتماسك في طريقها إلى أن تكون شفة مكتنزة بالأنوثة.

هذا خيال، أم معجزة!؟

إن لم يكن خيالًا، فهو معجزة.

وإن كانت معجزة، فكيف فعلتها؟

أسئلة بلهاء لا يطرحها إلَّا بشر وُلِدوا نتيجة مواقعات جِنسيَّة بين رجال الفول ونساء الباذنجان؛ أو بين رجال العدس ونساء الفلفل المقلي ؛ أو بين أيٍّ مِمَّن يُطعَمون بتلك المأكولات الرَّديئة قبل ممارسة علاقات حميمة تُثمِر (طبعًا) بشرًا ضعفاء الإرادة، لكن إنسان التِّين بالتُّوت (إلهيُّ الإرادة) يعمل ولا يصف أعماله بالمعجزات.

عندما نظرت صُوفيًّا في المرآة لترى سِرَّ الدَّبيب الذي أخذ يدغدغ ملامح وجهها في العام الأخير لم تكن تتخَيَّل أنَّها سترى الجمال يضع ريشته في وجهها، فاندهشت جِدًّا ولم تُصدِّق ما رأته، وتساءلت عمَّا إن كانت تحلم!

فما تراه هو المستحيل بعينه، وليس للمستحيل وجود في الواقع.

وفكرت في إن كانت ربما لا تزال مستغرقة بقراءة رواية بلغت روعتها حَدّ ازدواجها مع بطلتها وتقمُّصها لشَخصيَّتها ومعايشة حياتها؟ ما حدث لوجهها لا يمكن حدوثه إلَّا في عالم الخيال؛ والرِّوايات هي عالم الخيال.

ثُمَّ فكَّرت في أنَّها لم تقرأ (بأيِّ ليلة) رواية كانت بطلتها قبيحة ثُمَّ صارت جميلة! كُلُّ بطلات الرِّوايات جميلات! حتَّى رسخ في وجدانها أنَّ الكُتَّاب لا يختارون أبدًا مَن في مثل ظروفها بطلات لقصص الحُبِّ التي يكتبونها.

أمَّا الله فإنَّه يخلق على مراده (لا على مراد الكُتَّاب) فيضع في صدور الدَّميمات قلوبًا لا تَقلّ كفاءة عن قلوب الجميلات، فتُحبّ بنفس القُوَّة. غير أنَّ الجميلات فرصهنَّ وفيرة في وصال عُشَّاقهنّ،

أمَّا الدَّميمات فيتعذَّبن بحُبِّ حبيب (لا أمل في وصاله) عذابًا لا تعرفه الجميلات مهما فتكت بهنَّ آلام الهجر والفراق.

ـ كيريااليسون.

قلب صُوفيًّا يعمل بكامل طاقته. يستطيع الحُبَّ إلى أقصى مدى. بينما جسمها الكسيح القبيح لا يمكنه الجري في مضمار الحُبِّ، أو حتَّى المشي على مهل.

لكنَّها وجدت علاجها النَّاجع بقراءة أوَّل رواية، فأخذت تتعاطاه لأنَّها قرَّرت أن تشفى.

سمحت لقلبها بأداء مُهمَّته كمُحرِّك حُبٍّ؛ لم تكبح جماحه (كونها دميمة) حتَّى لا يُصاب بالعجز مثلها؛ ولأنَّ ليس لها حبيب تبادله الغرام أخذت تُوغِل في حُبِّ أبطال الرِّوايات، ليضُخّ قلبها مع كُلِّ همسة حُبٍّ، مع كُلِّ رعشة حُبٍّ، مع كُلِّ آهة حُبٍّ، مع كُلِّ ضَمَّة حُبٍّ، مع كُلِّ دمعة حُبٍّ، مع كُلِّ بسمة حُبٍّ، دماءً صاخبة داخل أوردتها تحمل ولعًا بالملمح الأبرز جمالًا في وجه كُلِّ بطلة؛ الملمح الذي يخلب لُبَّ حبيبها.

مثلًا:

فريدة. بطلة رواية «قلوب تحترق بلا دخان».

لها أنف ساحر دوَّخ حبيبها المهندس عامر، وشغل بال صُوفيًّا إلى درجة رأت معها أنَّ هذا الأنف هو بطل الرِّواية الحَقيقيّ، الذي يعمل بكامل قوته بين السُّطور، والمُحرِّك الخَفيّ للأحداث.

بعد انتهائها من قراءة «قلوب تحترق بلا دخان» مع أذان الفجر، رفعت جسمها من كُرسيِّها المُتحرِّك وألقت به في الفراشِ.

لم تنم فورًا.

ظَلَّت تطالع أنف فريدة السَّاحر وهو يتراقص في فضاء خيالها، وحاولت تصَوُّر وجهها لو أنَّه حمل هذا الأنف.

عيناها تثقلان بوطأة الاستسلام للنُّوم. تنسَلّ إلى أذنَيها دقَّات أجراس الكنيسة تعلن عن صلاة البكور، وتسمع في ذات الوقت همسًا حالمًا ينسَلّ من فم المسيح الباسم في صورته المُعلَّقة على الجدار الخَشبيِّ أعلى منضدة الكتب.

ـ ضعي أنف فريدة في وجهك يا صُوفيًّا؛ ثقي في أنَّك تستطيعين ذلك؛ هكذا تكونين أفضل جِدًّا.

المسيح بنفسه يُحفِّزها، وينفخ فيها من إرادته!

إرادة المسيح إرادة إله مات وقُبِر، لكنَّه هزم موته، وانتصر على قبره، وصعد إلى الأعالي، وجلس على يمين أبيه.

الموت أصعب من القبح.

وقد هزم الله الموت، وستهزم صُوفيًّا القبح.

صدرت أوامر خارقة من عقلها الباطن إلى جينات جمال الأنف بضرورة النهوض، والعمل الجادّ على إكساب أنف صُوفيًّا جميع مُقوِّمات أنف فريدة الجميل.

وقد سارع دمها إلى تنفيذ الأوامر الخارقة، فحمل جينات جمال الأنف وجرى في عروق صُوفيًّا مثل رهوان جامح، حذا بها حذو جمال أنف فريدة وطَوَّف به هادرًا في أوردة وشعيرات أنف صُوفيًّا المُبطَّط، فشعرت بدبيبه هناك مثل نسمة باردة تُدوِّم داخله.

واستمرت تُدوِّم لأشهر طويلة.

ومثلا:

لمياء. بطلة رواية «العشق المضيء».

عينا لمياء في هذه الرِّواية لعبتا دور البطولة؛ إذ (على طول الرِّواية) لم تنطق لمياء بكلمة واحدة، فيما كانت عيناها الفاتنتان تقولان لحبيبها كُلَّ الكلام. وربما لهذا السَّبب توَحَّدت صُوفيًّا مع لمياء كما لم تتوَحَّد مع بطلة رواية من قبل. فلمياء تقريبًا صامتة مثلها؛ وإن كان صمت لسانها وكلام عينَيها سببهما لوعة الحُبِّ، فإنَّ القبح هو ما يدفع صُوفيًّا إليهما.

عندما أنهت قراءة «العشق المضيء» قضت في فراشها وقتًا طويلًا تتخَيَّل وجهها مُزيَّنا بأنف فريدة وعينَي لمياء.

ملمحان غاية في الرَّوعة، لكن؛ يحيط بهما جبينٌ تهدَّل جلده وصدغان ممصوصان وشفتان غير آدميتَين.

دقَّات أجراس كنيسة العذراء تلفت انتباه شعب المسيح إلى صلاة باكر.. وصُوفيًّا مبهورة بعينَي لمياء حتَّى انسَلَّت إلى أذنَيها صيحات نورس يحتفي بصباح البحر، صيحات مثل عزف كلارنيت حزين.

أخيرًا غلبها النُّعاس.

وبينما ذهبت تستغرق فيه شعرت كأنَّ جناح المسيح ربت على كتفها، وسمعت صوته رقيقًا يهمس في أذنها: «ضعي عينَي لمياء في وجهك يا صُوفيًّا.. ثقي في أنك تستطيعين ذلك، هكذا تكونين أفضل جِدًّا».

حاولت فتح عينَيها لترى المسيح؛ ترغب في مكالمته لتُعبِّر له عن

فرحتها كونه تفَهَّم مشكلتها، وإن تفَهَّمها مؤخَّرًا، لكنَّه ها هو يتفَهَّمها بحماس وإخلاص، إلى درجة أن ينتزع نفسه من إطار الصُّورة العالية وينزل إليها، ويُقدِّم لها التَّحفيز الذي تحتاج إليه.

ورغم رغبتها العارمة في مكالمة المسيح لم تستطع فتح عينَيها.

ألقى النَّوم بها في دوَّامات الغياب، فنامت ودبيب (كدبيب النَّمل) يدغدغ مقلتَيها، فيجبرهما على ذرف الدُّموع.

كان دم صُوفيَّا يُنفِّذ الأوامر الخارقة الصَّادرة من العقل الباطن لأنثى التِّين بالتُّوت؛ وكان هذه المَرَّة مُحمَّلًا بجينات جمال العيون، يعمل بجِدٍّ في مقلتَيها، خاصَّة تلك المطموسة النِّنيّ.

هكذا أخذت صُوفيَّا تستعيد جمالها ببطء، بأناة.

لكن بجدارة.

- 5 -

تنتهي مريم من خدمة صُوفيًّا وتعود إلى شَقَّتها منهكة تمامًا.

لقد قضت الليل سهرًا أمام المرآة تراجع أحداث ذكرياتها. وأُجهِدت لفرط التَّدقيق في المشاهد لقطة تلو اللقطة. هذا غير مكابدتها لمريم المرآة الوقحة المُتنمِّرة.

ثُمَّ يبلغ إنهاكها ذروته برؤيتها لصُوفيًّا.

كأنَّ بؤس البنت المسكينة صورة طبق الأصل من بؤسها، بيد أن بؤس صُوفيًّا أشَدّ، لأنَّها قبيحة ومعزولة على السَّطح، وتقضي لياليها تنظر في الرِّوايات، والنَّظر في الرِّوايات أشَقّ من النَّظر في المرائى.

أخيرًا تسقط مريم بتعبها لتغرق في نوم ثقيل. تستلقي على ظهرها بلا حراك إلى أن يقرع ناقوس الكنيسة لصلاة الظَّهيرة فتهِبّ فزعة وهي تشهق كمن يستفيق من كابوس. تنظر حولها مرعوبة فيما ترسم الصَّليب على جانبَي صدرها وجبهتها بيد تشنَّجت أصابعها. بعد لحظات تبدأ بصعوبة في ضبط أنفاسها.

نور الظَّهيرة يُعبِّئ غرفتها، وضجيج الشَّارع أيضًا.

العالم حَيٌّ، لكنَّه يوم آخر بائس، لا تأمل في أن يتَّجه بها نحو جديد.

ـ كيرياليسون.

تنهض من سريرها مُعتَقلة بفقرات ظهر مُتيبِّسة، لا يمكنها استعداله فورًا فتذهب إلى الحمام مَحنيَّة. لعرجها تتساند بكفَّيها على الجدران. تَئنُّ كمن يحمل ثقلًا على كتفَيه. تقطع الصَّالة المزدحمة بصور

القدِّيسين المساكين المُعذَّبين وقد حوصرت رؤوسهم بهالات أنوار انطفأ بريقها بغلالات التُّراب. تلوح لها انحناءة ظهر المسيح وهو يحمل (في مثل هذا الوقت من نهار بالغ القِدَم) صليبًا خَشبيًّا ثقيلًا على كتفَيه وظهره، يسحبه بين الرِّعاع والدَّهماء، يقطع به الشَّوارع والأزِقَّة الضَّيِّقة، جارًّا قدمَيه المُقيَّدتَين بالسِّلاسل الغليظة، مُعذّبًا بتسع وثلاثين جلدة جلده إيَّاها جنود بيلاطس الملعونين.

ـ كيريااليسون.

تسمع الخنفساء الكامنة في قلبها تقول: المسيح تعَذَّب ليحصل الرِّجال على الخلاص. لو أنَّه خَلَّص النِّساء لكُنَّ الآن سعيدات. لكن المرأة خطيئة. إيَّاكِ أن تنبهري بقِصَّته الزَّائفة مع المرأة الخاطئة. إنَّها مُجرَّد قِصَّة مُختَلقة لجذب النِّساء إلى الفَخِّ الإيمانيّ. المسيح جاء ليكمل النَّاموس. هو قال إنَّه جاء ليكمل النَّاموس. هل تعرفين ماذا قال النَّاموسُ عن المرأةَ؟ أحسن لك ألَّا تعرفي!

ـ كيريااليسون. لكنَّه تعَذَّب.

ترفع مريم وجهها إلى السَّقف بنظرة لائمة، تسأل ملك الملكوت:

ـ كيف طاوعك قلبك أيُّها الآب! كيريااليسون. ألا تعرف طريقًا آخر لتخليصنا من الخطيئة دون تعذيبنا؟ حتَّى أنَّك تُعذِّب ابنك على الصَّليب!

ـ كيريااليسون.

لم تكن انتبهت إلى أنَّ المسيح ابنٌ إلَّا عندما نضجت. إنَّه ابنٌ أكثر من أن يكون شيئًا آخر. ولو أنَّها فَكَّرت فيه منذ البداية بقلب أُمٍّ لربما سطرت لها الأقدار قِصَّةً أخرى مع الحياة، قِصَّةً سعيدة مثل قصص السُّعداء، لكن هذه الخنفساء القميئة أعَدَّت لها الشَّرك في وقت مُبكِّرٍ

جِدًّا، لم تكن فيه أُمًّا، بل عذراء مقهورة بقِصَّتها الشَّنيعة مع أبيها، فرأت المسيح ابنَ أبيه، الذي حرص على إنجابه ولدًا لا بنتًا، ومنحه المجد، فيما ترك للبنت قِلَّة القيمة.

وبانقشاع سحب مراهقتها مع الأيَّام والسِّنين، وسطوع شمس نضوجها، آمنت إيمانًا جديدًا اعتقدت به أنَّ الآب في الحقيقة لم يمنح ابنه غير شيئَين سخيفَين: العذاب.. وبطولة رواية مُقدَّسة تُحكَى عنه على مدى القرون، لكن هو نفسه لا يمكنه الفرح بها.

أليس قد صار إلهًا مثل أبيه!

مذ متى كانت أدوار البطولة في قصص البشر الفانين تُشبع كبرياء الآلهة فيفرحوا بها؟

يا مَسيحِي العزيز، قسى الآب عليك مَرَّتان.

ـ كيريااليسون.

تنظر إلى وجهها في مرآة الحَمَّام.

مرآة الحَمَّام حنون وصادقة، لا تعرض لها ذكرياتها الكئيبة، ولا تسمح لمريم المُتنمِّرة بأن تطلّ عليها منها لتُبكِّتها وتُقرِّعها.

مرآة الحَمَّام تُظهِر لها وجهها الجميل وفقط؛ تعكس حالتها بأمانة دون تجميل أو تشويه؛ وترى فيها روحها على حقيقته مُشبَّعًا بالآلام.

إنَّها تُجلَد كُلَّ يوم أضعاف التِّسع وثلاثين جلدة التي جُلِدها الابن. وتحمل طوال الوقت صليبًا أثقل من صليبه، لا ينزاح عن ظهرها وكتفَيها حتَّى في وقت النَّوم.

مات أبي؛ أمَّا الآب فإنَّه لا يموت.

- 6 -

أبوها اسمه في البطاقة: مكرم نعيم لوقا. واسمه في الكنيسة: أبونا هارون.

لديه ثروة وافرة تسَلَّمها من أبيه بعد أن ترك تجارة القطن ورحل إلى الأمجاد السَّماويَّة.

هكذا امتلك مكرم نعيم لوقا بيتًا فسيحًا له حديقة خَلفيَّة عامرة بأشجار الفاكهة مساحتها فَدَّان، في قلب الفَدَّان حلقة واسعة من أشجار التِّين والتُّوت يتوَسَّطها تَلٌّ صغير قاحل.

تعَمَّد أبونا هارون ترك التَّلّ قاحلًا، غير أنَّه زرع في قِمَّته صليبًا كبيرًا صُنِع بقطعتَين من جذع نخلة جافّ. سَمَّى التَّلَّ جبلًا، وسَمَّى الجبل جبل جلجثَّة.

وكان إذا اصطاد أحد المُفترِسات الضَّارَّة بدواجن مزرعته قتله، وفصل رأسه عن جسده؛ يتخَلَّص من أجسادها، ويأخذ رؤوسها يدفنها في جبله.

بمرور الوقت تتحَوَّل الرُّؤوس إلى جماجم، وبمرور الوقت يماثل جبلُه جبلَ جلجثة الحَقيقيّ، الكائن في ناحية من نواحي بيت لحم من أرض فلسطين، والتي لم يُسمَّ جبلُها بهذا الاسم المقيت سوى لأنَّ رؤوس المجرمين من السُرّاق وقطاع الطُّرق وخونة روما قُطِعت

ودُفِنت فيه، صارت بمرور الوقت جماجمًا.

بفضل الأب هارون صار في قلب صعيد مصر (في أسيوط تحديدًا، حيث انتهت رحلة العائلة المُقدَّسة قبل ألفَي سنة) جبل جلجثَّة آخر، لا ينقصه سوى مسيح آخر مُمتهَن، يجرجره حُرَّاسه القساة في زفيف من دهماء العوامِّ السَّاخرين ليُسمِّروه فيه بلا رحمة.

وكان الأب هارون اعتاد الذِّهاب إلى جبله للتَّعبُّد بين اليوم واليوم، وبين الأسبوع والأسبوع، قاصدًا متعة نفسه ورياضة روحه، مع ذلك لطالما تعَجَّب من نفسه ومن روحه، اللذان لم يستروِحا (ولو لمَرَّة واحدة) بالصَّلاة في هذا المكان!

لم تنتعشا للحظة!

بل كلَّما ترَنَّم بآيات الإنجيل حزن، وضاق قلبه!

انقضت الأيَّام ووقع المستقبل في مجال الحاضر. وعاين مكرم نعيم لوقا ما حصل تحت أكبر شجرة تين في سفح جبله، فأدرك سبب حضور حزنه وضيق قلبه مهما تعَبَّد على هذا الجبل. ولشَدَّ ما ندم (بعد المعاينة) أن عمل بيدَيه هذا الجبل الكريه!

وصاح فيما يغرس قواطع أسنانه في شفته السُّفلى يكاد يُمزِّقها:

ـ ماذا كنت تنتظر من الجبل الملعون يا مأفون غير حلول الآلام القواصم؟ مكرم الدَّنيء ليس المسيح فيشرب كأس المُرِّ ويمُرّ بسلام!

وفَكَّر في أنَّ السَّماء ربما مُتيّمة بالصُّلبان! إذا رأت أحدها فارغًا سارعت باختراع مسيح يُشبَح عليه. وصليب جلجثَّة في قلب حديقة بيته كان فارغًا. لو يعلم شغف السَّماء بالصَّلب لصلب عليه كلبًا ولم

يتركه فارغًا.

كان الأب هارون يذهب إلى جبله للتَّعبُّد في وقت العصر: وقت الهدوء.. وقت السَّكينة.. وقت الطَّقس اللطيف.

في ذلك اليوم المشؤوم ذهب (على غير عادته) في وقت الظَّهيرة، فرأى أربعة سيقان عارية لطفلَين تبرز من تحت أغصان شجرة التِّين الكبيرة، المشرفة على التَّلِّ.

هنالك فزع قلبُه.

أهي سيقان عفاريت الظَّهيرة، أم سيقان جُثّتي طفلَين قُتِلا وأُلقِيا في حديقته؟

فلمَّا رأى السِّيقان نبضت بحركة واضحة تشَجَّع مستعينًا بيسوع، وتقَدَّم إلى الشَّجرة شاهرًا صليبه مثل الطَّبنجة.

رفع الأغصان عن السِّيقان.

رأى مصيبة سوداء نفخت سُمَّها في وجهه، فأعمت عينَيه وطمست فؤاده.

رأى وجيه يعتلي مريم، يفعل ما يفعله الرَّجل في امرأته! مع أنَّ وجيه شقيق مريم. ومريم شقيقة وجيه. ووجيه ومريم طفلاه. أنجبهما من صلبه.

هرب وجيه عاريًا بين الأشجار. أمَّا مريم فإنَّها بنت، والبنت تستحي. خطفت ثيابها. ألقتها على عريها. وتيَبَّست مكانها مثل تمثال عيناه زُجاجيَّتان مرعوبتان تتشَبَّثان بعينَي أب سقط في إغماءة كابوسيَّة.

فيم فَكَّر أبونا هارون وهو ينظر إلى طفلته نظرته المُباغَتة المفجوعة؟

ربما فَكَّر في أنَّ شتَّان الفارق بين مريم العذراء وهي تقف عزيزة

النَّفس على حافَّة جبل جلجثَّة في بيت لحم، وبين هذه المريم الخاطئة المستلقية كحَيَّة قذرة على حافَّة جبله في إحدى قرى أسيوط.

وربما فَكَّر في أنَّ بنت حوَّاء (مهما كانت طفلة) لا تَقلّ شَرًّا عن أُمِّها، مليئة بالغواية مثلها، مشحونة بالخطيئة مثلها، تنفثها في وجه كُلِّ ذكر وإن كان طفلًا في عمر وجيه، وإن كان شقيقها وجيه.

سرعان ما شرع مكرم نعيم لوقا في إيقاع العقاب بغضبٍ مُتفجِّر لائق برجل صَعيديٍّ طُعِن للتَّوّ في شرفه، غير لائق بقَسٍّ طالما كَرَّر على مسامع شعب المسيح قِصَّة المرأة الخاطئة التي لم يستطع أحدٌ التَّقدُّم لرجمها، حتَّى المسيح لم يتَقدَّم.

كان أبونا هارون يزعق بحمية، فتُردِّد جدران الكنيسة نبرته الحامية. يقول ما قاله السَّيِّد المسيح لمن جاءوا بالزَّانية راغبين في رجمها: «من كان منكم بلا خطيئة، فليتقَدَّم ويرجمها أوَّلًا».

لكن هنا في حديقة بيته! والزَّانية طفلته! صرخ مناديًا:

ـ يا عيد.

شَقَّت صرخته السَّماء، وهزَّت الشَّمس، وأسقطت حَبَّات التِّين والتُّوت وجميع ثمار الفاكهة عن أغصانها، وأرعشت جذعَي النَّخل المتقاطعَين صليبًا.

ظهر عيد بسرعة جِنّ سليمان.. نحيف.. رغم سِنّه الكبيرة برز من بين الأشجار مهرولًا بصدر منضبط.. لا يلهث. حافي القدمَين. جلبابه مُمزَّق تُطيِّر الرِّيح حوافَّه.. عاري الرَّأس، فلا عمامة ولا قُلنسوَّة.. ووقف بين يدَي مولاه منتصبًا ينتظر الأوامر.

وقد أمر: أحضِر لي حبلًا وسوطًا في لمح البصر.

بأسرع من لمح البصر أحضر عيد حبلًا كتَّانيًّا وسوطًا من جلد البقر.

ألقى مكرم الصَّليب من يده جانبًا، وقبض على شعر مريم. جَرَّها جَرًّا عنيفًا كمن يجُرّ جيفة عفنة يوَدّ الخلاص منها. قَطعت نتوءات الصُّخور والجذور أجزاءً مُتفرِّقة من جلد جسمها. جَرًّا أصعدها التَّلَّ حتَّى ألقى بها تحت صليب جلجثَّة الكئيب.

بأقَلِّ مجهود صلباها، فأُكمِل صليب جلجثَّة المُشرَع في قلب صعيد مصر؛ لأنَّه قد صُلِب عليه جسد مُترَع بألمه أيضًا.

كانت مريم الصَّغيرة تشعر بأنَّها ارتكبت خطأً. فلو لم يكن كذلك لما فعلته هي ووجيه سِرًّا مختبئَين تحت أوراق شجرة التِين في وقت قيلولة البشر؛ لكن هل كان خطؤها كبيرًا لدرجة أن يُحوِّل أباها الحنون الرَّؤوف إلى رجل غريب مُتوحِّش شديد القسوة!

بابا الذي إذا تعَثَّرت في الطِّريق عثرة بسيطة مال إليها يمسح عنها التُّراب وهو يُنقِّل عينَيه جزعًا بين أعضاء جسمها الصَّغير خشية أن تكون جُرحت بينما يهمس لها بكلمات مشفقة مُهدِّئًا من روعها.

بابا يجُرّ جسمها الصَّغير على نتوءات الأرض فيُقطِّع جلدها!

بابا يُعلِّقها على الصَّليب بعنف يُحطِّم عظامها ويُفسِّخ أعضاءها!

بابا يهوي عليها بالسَّوط فيُضيِّع إحدى عينَيها ويشَقّ شفتها!

بابا!؟

- 7 -

ـ كيريااليسون.

تُردِّدها مريم مكرم نعيم وهي تُنقِّل قدمَيها ببطء إلى المطبخ، وقد اعتدل ظهرها بعض الشَّيء.. تفتح الثَّلاجة.. تأخذ بواقي أطعمة خفيفة مُجهّزة للصَّوم.. تأكل لقمتَين أو ثلاثة.

تنهي طعامها بأقَلِّ من دقيقتَين. تعود إلى غرفة نومها بظهر معتدل. تستِعدّ للخروج. لديها عمل عليها مداومته لتواصل الحياة بدون تسَوُّل أو انتظار إحسان.

تتأكَّد من أنَّ لسان المغلق استنفد حركاته الثَّلاثة، وأنَّ باب الشَّقَّة قد أُغلِق بإحكام. تهبط درجات السُّلَّم بحذر.. ساقها الأقصر من طولها الطَّبيعيِّ تجعل الهبوط عمليَّة أصعب من الصُّعود. كذلك ذراعها المبتسرة.. أيضًا كِبَر السِّنِّ.. لكنَّها اعتادت الأمر.

بينما تهبط الدَّرجات ينشغل عقلها بأمور كثيرة؛ أمر صُوفيَّا أكثر ما يشغلها.. صُوفيَّا بنت مريحة. نادرًا ما تطلب شيئًا سوى الرِّوايات.. رقيقة جِدًّا رغم بشاعة شكلها وشناعة صوتها.. البنت تفعل كُلَّ ما يمكنها كي لا تتسَبَّب في مضايقات إضافيَّة لها. حتَّى أنَّها تتعَمَّد ألَّا تبادرها بكلام. وإن حدث فباقتضاب شديد. وفكَّرت مريم في أنَّ صُوفيَّا ربما تفعل ذلك خجلًا من قبحها، كأنَّها تعتذر عنه.

مسكينة البنت! هل أمكنها الاختيار لتعتذر إذا أخطأت الخيار!

تُفتِّش مريم ذكرياتها كُلّ ليلة فلا تعثر على حدث واحد اختياريّ. جميع ما مرَّت به كان إجباريًّا. وما ظَنَّته الحدث الصُّدفة انكشف مع الوقت عن كونه الحدث الجَبريّ.

يا إلهي!

يستهين النَّاس بالصُّدف حين يعتبرونها أحداثًا عارضة، بينما هي الزَّوايا الرَّئيسة التي تُبنَى عليها حياة الإنسان.

تخاطب صُوفيًّا في سريرتها: «يا بنتي: كُلُّ مؤلِم أساسه صدفة، وكُلُّ مريح أساسه صدفة، لو لم تدفع الصُّدفة بأبي لدخول تلك الغرفة، زمان، في أسيوط، لما كنت أنا أو أنتِ نعاني التعاسة الآن في الإسكندرية، ولو لم تدفع الصُّدفة بي إلى القَسِّ هارون لما كان لكِ وجود في هذه الحياة المقرفة.

بعد مكابدة الدَّرجات والذِّكريات تصل مريم إلى الطَّابق الأرضَيّ. مدخل العمارة.

عيد البَوَّاب يجلس على أريكته المتهالكة ذات الكسوة المُتَّسخة. يُدخِّن الشِّيشة، ينظر إليها نظرة خاطفة قبل أن يشيح بوجهه عنها وقد قلب شفتَيه وزَرَّ جبينه بما يشبه الامتعاض!

الواجب يُحتِّم عليه مبادرتها بتحيَّة الصَّباح، باعتبارها سَيِّدة تسكن عمارة هو بوَّابها، وحتَّى إن كان الصَّباح انقضى وحَلَّت الظَّهيرة فهذا لا يمنع المِصريِّين عادة من تبادل تَحايا الصَّباح ولو في عِزِّ الليل.

عيد البَوَّاب لا يكتفي بأنَّه لا يبادرها بالتَّحيَّة، بل يقذفها بنظرة امتعاض خاطفة.

صعيديٌّ جلف. في منتصف العقد الخامس من عمره. لم تشعر ناحيته يومًا براحة نَفسيَّة، لأنَّه يتجاهل وضعه الدَّنيء (كبوَّاب عمارة) ليمارس أدوارًا سُلطويَّة باشاويَّة!

حتَّى جلسته على الأريكة ليست جلسة بوَّاب؛ إنَّها جلسة لواء شرطة يراقب السُّكان في دخولهم وخروجهم باعتبارهم مُتَّهمين افتراضيِّين بارتكاب جرائم سيتِمّ الكشف عنها في الوقت المناسب!

أو يجلس كأنَّه صاحب عمارة متغطرس يظُنّ أنَّ سكانَّها عبيد عنده، لا مستأجرين يدفعون له المال نظير الإقامة.

لذلك لم تسمح لنفسها بأن يكون بينها وبين عيد البَوَّاب أيَّة معاملات غير تلك المعاملات الماليَّة المُتعلِّقة ببنود إقامتها في العمارة.. دفع الفواتير.. أجرة شهريَّة.. كهرباء.. مياه.. جمع قمامة.. نظافة مرافق العمارة. ثُمَّ لا شيء غير تَحيَّة صباحيَّة ومثلها مسائيَّة لا تزيدان عن: (صباح الخير) و(مساء الخير).. هي من تبادر بإلقائهما نحوه دون أن تنظر في وجهه. كأنَّها تقذفه بفردة حذاء.

مرَّة تعَمَّدت النَّظر في وجهه لثانيتَين، فتمكَّنت من رؤية ملامحه بشكل أفضل: إنَّه قمحيُّ البشرة.. أنفه هرميٌّ شامخ. عيناه واسعتان صافيتا البياض والسَّواد.. شفتاه معتدلتان.. سالفاه ناعمان أسودان.

تخيَّلته بدون عمامة فهالتها وسامته.. هالها أكثر شبهه بهارون!

ارتبكت.. تجاوزت باب العمارة إلى خارجها فصارت موجة صغيرة في بحر بشريٍّ يتدَفَّق على الرَّصيف.

انداحت بين الأمواج البشريَّة لعشرين مترًا تقريبًا، ثُمَّ دارت مع أوَّل شارع يمين.. خَفَّ الزِّحام قليلًا على رصيف هذا الشَّارع.. لم تمش طويلًا.. بعد عشرين مترًا أخرى وقفت أمام حانوت صغير مغلق. بيد مرتعشة أخرجت مفتاحًا من حقيبتها.. وضعته في القفل.. سحبت الباب الجرَّار إلى أعلى بكلتا ذراعيها، الصَّحيحة والمبتسرة، دفعت الدَّلفتَين الزُّجاجيتين ودخلت، جلست مباشرة خلف ماكينة الخياطة بحرص فرضه عليها ضيق المَحلّ.

يا للبوَّاب الكئيب! يشبه حبيبها الأوحد.

دَقَّ قلبها بقُوَّة ظهرت آثارها على قفصها الصَّدريّ الذي أخذ يعلو وينخفض مثل مَضخَّة. كأنَّها رأت أحد مشاهد ذكرياتها المرعبة.

زبائنها قليلون؛ لا تعرف سببًا مُحدَّدًا لِقِلَّتهم، لماذا هم قليلون إذا كانت ماهرة جِدًّا في التَّفصيل والحياكة!

هل للغيرة دور؟

لم لا!

إنَّها خَيَّاطة حريمي، والسَّيِّدات لا يُفضِّلن التَّعامل مع خيَّاطة فائقة الجمال مثلها، لأنَّهنّ لن يشعرن بأنَّهن زبونات سَيِّدات مجتمع بقدر ما سيشعُرن بأنهنَّ وصيفات جالسات في حضرة ملكة الجمال كُلّه.

كم هُنّ حمقاوات!

ما ذنبها إذا كان الله خلقها فائقة الحسن؟

ما للحُسن والصَّنعة!

ما للحُسن وأكل العيش!

هل يجب عليها الموت جوعًا وفقرًا لا لشيء سوى أنَّها حسناء بشكل لافت؟

تُفكِّر السَّيدة مريم مكرم نعيم في أنَّ حتَّى عيد البَوَّاب (حين يبدي امتعاضه لرؤيتها) لا يفعل ذلك إلَّا ليتخَلَّص من إحساسه بالتَّصاغُر أمام جمالها الأخَّاذ، وإلَّا فلِمَ يمتعض لرؤيتها وهي الملتزمة بدفع ما عليها من فواتير، وتعامله بأدب جَمٍّ أكثر مِمَّا يناسب شخص بقيمة بوَّاب عمارة؟

ـ مساء الخير.

زبون!

رفعت وجهها من بين كَفَّيها، رسمت ابتسامة مُرحِّبة على وجهها، وسرعان ما لاحظت أنَّ ملامح وجه الزُّبون مألوفة بالنِّسبة لها.

يا رَبِّي!

ليست ملامح مألوفة فقط.. إنَّها حميمة.. تعشقها.

ارتبكت وارتبك بدوره.

أجابته:

ـ مساء النُّور.

تخلَّص من ارتباكه بأن وضع حقيبة بلاستيكيَّة على منضدة قَصِّ الأقمشة وأخذ يفتحها، بينما يفعل تأمَّلت وجهه؛ على ارتباكه

الملحوظ كان مريحًا، كأنَّه هارون في منتصف العقد الثَّالث من عمره! متوسِّط الوسامة.. مكتمل الرُّجولة، جبهته عريضة.. صدره عريض.. شعر رأسه غزير طويل.. حليق الذِّقن.. ممتلئ الجسم بعض الشَّيء.. طويل بعض الشَّيء.. يرتدي ملابسه بعشوائيَّة يُفضِّلها الشَّباب في مثل عمره. تتدلَّى من كتفه كاميرا تصوير كبيرة.. كاميرا محترفين.

مَدَّ إليها قميصًا.. قال:

ـ مقطوع أسفل الإبط الأيسر.. أيضًا بعض الأزرار تحتاج إلى تثبيت.

صوته رخيم.

مع ارتباكه الواضح تَكلَّم بهدوء ولطف عكسا ثقة كبيرة بالنَّفس، وإذا كان يحمل كاميرا محترفين فهو إمَّا مُحبّ للتَّصوير، أو له علاقة بالصَّحافة.

في كلا الحالين هو مُصوّر؛ نوعيَّة من البشر خلاياها تحمل غريزة التَّعاطي مع الزَّوايا المختلفة للرُّؤية.

ماذا لو أنَّها فاجأته للتَّوّ بأنَّه يشبه حبيبها.. أو.. من كان حبيبها.

دَقَّ قلبها بعنف. صدى صوتها تـرَدَّد مُـدوِّيًـا في صدرها: «كيرياليسون».

همست:

ـ تفَضَّل اجلس.. دقائق قليلة وأنهي طلبك.

قلبت القميص.. تمَكَّنت من ضبط الفتق بسرعة.. لأمت حافَّتيه بمهارة.. وضعتهما تحت إبرة الماكينة.. ضغطت على دوَّاسة التَّشغيل فلم يعمل مُحرِّك الماكينة.. نظرت إلى لمبة البيان في لوحة الكهرباء

فوجدتها مطفأة.

ـ الكهرباء قطعت.

ابتسم الزُّبون ابتسامة خاطفة دون أن ينظر في عينَيها، فيما يقول:

ـ ولا يعرف أحدنا متى ستعود.. عمومًا أنا غير مُتعجِّل.. سأعود غدًا. أو ربما بعد غد.

- 8 -

«... بقلب محترق أخذ خالد يُحفّز سلمى: أحيانا تفقد الأفعى نصف جسمها في معركة تدور بينها وبين أحد أعدائها الطَّبيعيِّين، لكن لا تفقد عزيمتها.. بنصف جسم تواصل الحياة.. وتنجح، حتَّى أنَّ جسمها يُعوّض نقصه! تخَيَّلي! تعود أفعى كاملة، كوني يا سلمى قَويَّة الإرادة كأفعى...».

تأمَّلت صُوفيًّا الفقرة طويلًا وقد أُخِذَت بجرأة الكاتب الذي جعل بطل الرِّواية يقارن بين حبيبته وأفعى!

أيُّ حبيب هذا الذي يقبل مقارنة حبيبته بأفعى ولو من باب قُوَّة الإرادة!

لم تقبل صُوفيًّا ما قاله خالد لسلمى مع ذلك أرجحت رأسها إعجابًا بجرأة الكاتب، كما نبَّهتها جرأته إلى أنَّ البحر ليس هو الكائن الوحيد الذي يماثلها في وحدته واختلافه؛ أيضًا: الأفعى..

الأفعى قبيحة.. مبتورة الأطراف.. تزحف لتتحَرَّك، شفتاها مُسطَّحتان.. أذناها مبتورتان.. عيناها ميتتان.. مُشوَّهة.. منعزلة.. قرأت نِتفًا عنها في روايات مختلفة، عرفت أن الأفعى كانت أجمل المخلوقات قبل أن تقوم بإفساد خُطَّة خَيّرة وضعها الرَّب لأجل أحدث مخلوقاته: آدم.

كانت الخُطَّة تهدف إلى استبعاد إبليس من الجَنَّة تأمينًا لآدم من التَّعرُّض لحقده، فقامت الأفعى بدَسِّ الشَّيطان في جوفها، استغفلت

الحرس الملائكيَّ وعادت به إلى الجَنَّة، حيث نجح في إفساد آدم نجاحًا منقطع النَّظير، فكان أن غضب الله على الأفعى غضبًا شديدًا.

انتقم منها: مَزَّق أطرافها وحكم عليها بالتَّنقُّل زحفًا.

لكن أَيّ شيطان حملته صُوفيَّا في جوفها لتُولَد قبيحة، وتتحرَّك زحفًا!

لا تتذكَّر أنَّها حملت شرورًا لأحد، فلا أحد بمحيطها لتحمل له شَرًّا أو خَيرًا. حتَّى نينة مريم (رغم كآبتها وقبحها وانقطاع التَّواصل الحميميّ بينهما) لا تحمل لها غير الامتنان المحض، إذ ما كان لها مواصلة الحياة بدونها؟

بل كثيرًا ما فَكَّرت في أنَّ نينة مريم هي الرَّحوم الحَقيقيّ؛ لا الرَّب. ففي الوقت الذي أخذ الرَّبُّ يخطئ في حَقِّها تَحمَّلت نينة مريم كلفة جميع أخطائه .

انتبهت صُوفيَّا: «ما لي وما للأفاعي الآن! كنت شبيهة بالأفعى، كنت؛ الآن لم أعد كذلك، تغَيَّرت ملامح وجهي، مُحي قبحُه. لم يعد دميمًا، صرت أملك وجهًا ساحر الجمال، والرَّبُّ يسوع صالحني. وأرشدني إلى الطَّريقة التي أُصلِح بها بعض أخطائه، واختار معي أجمل ملامح بطلات الرِّوايات لأتحَلَّى بها، لو أنِّي أحمل في جوفي شيطانًا لما صالحني يسوع.. أنا لست أفعى إذن».

«... كوني يا سلمى قَويَّة الإرادة كأفعى...».

الفقرة في رواية «العصافير تُغنِّي على أغصان الأشجار»، حيث عانت سلمى طويلًا من الفشل الكبديّ وكانت تحتضر.

في آخر صفحات الرِّواية جلس خالد على الأرض مُتَّكئًا بجنبه الأيسر

إلى حافَّة الفراش الذي ترقد سلمى فيه. منهارًا، يمسك يدها ويمسح بها صدغَيه.. تلسعه برودة جلدها فيرى طلائع موتها.. ينشج ببكاء يذرف دموعًا ملتهبة تتبَخَّر دخانًا. يهمس كلمات الأمل في أذنها بنبرة صوت خلت من أيِّ أمل، يحُضّها على البقاء فيما يشاهد اليأس يقضم روحها.

سلمى ستغادر بلا عودة.. بعد دقائق قليلة ستخلو حياة خالد منها إلى الأبد.

كفأت صُوفيًّا الرِّواية فوق صدرها الضَّامر، ضمَّتها إليها بذراعها المبتسر. وبكت.

امتزج شهيقها بهدير رياح خفيفة تمرح فوق البحر، وبتلاطم موج لا يكفّ عن الصَّخب المخيف.

بدموعها رأت أطباق استقبال البَثّ المرفوعة إلى السَّماء. وحدَّثت نفسها بأنَّ قلوب الأحبَّة قاسية. يرتكبون جرائم نكراء في حَقِّ أحبّتهم المتأهِّبين لركوب دابَّة الموت عندما يحضّونهم على بقاء لا يستطيعون تحقيقه، فينقلون إليهم شعورًا مخزيًا بالذَّنب، كونهم يغادرون تاركين لأحبّتهم التَّعاسة.

سلمى لا ترغب في مفارقة خالد، إنها تفعل ذلك عنوة، جَرًّا من أنفها؛ على خالد ألَّا يسحبها إليه من شعرها.. ستتمَزَّق المسكينة.

دقَّات قلب خالد عنيفة. ارتعشت لها الورقة بين أصبعَي صُوفيًّا.

ورقة النِّهاية ثقيلة ومؤلمة.

قِطَّة بيضاء غزيرة الشَّعر تمشي بين النَّواطير.. تتَّجه إلى السُّور.. تقفز إلى أعلاه.. تنظر حواليها بهدوء وتقعي بمواجهة صُوفيًّا.

اعتادت البكاء في آخر ورقة من كُلِّ رواية سواء كانت نهايتها بهيجة أو حزينة، ستفارق أناسًا عاشرتهم بحُبٍّ خالص طوال ساعات؛ أهدتهم وقتها وأهدوها الونس.. بل منهم من أهداها أنفه.. ومن أهداها عينَيه.. ومن أهداها جبهته.. ومن أهداها صدغَيه.. وغيرها من أعضاء منحتها أخيرًا وجهًا ساحرًا.

في آخر أوراق «العصافير تُغنِّي على أغصان الأشجار» لم تبكِ فقط، بل انتحبت حزنًا لموت سلمى وفراقها الأبديّ لحبيبها المخلص.

ثُمَّ فَكَّرت صُوفيًّا في أنَّ سلمى ماتت في حضور حبيب غَسّلها بدموعه قبل أن تُغسَّل بالماء. كفّنها بلوعته قبل أن تُكفَّن بالقماش. أيُّ نهاية أسعد لحبيب من موته في حضور حبيبه؟ أيُّ نهاية أسعد من نهاية سلمى؟

وتطلّعت لما قد تكون عليه لحظات موتها فوجدتها بائسة.

طعنها المشهد الأخير من تلك الرِّواية بنصل روعته، روح سلمى يَصَّعد إلى الملكوت في وداع حبيبها خالد، بينما ستموت هي وحيدة في غرفة خشبيَّة على سطوح عمارة تطالع البحر القبيح، ولن يشعر بموتها أحد سوى نينة مريم، هذا إذا لم تمت نينة مريم قبلها!

«ومن نينة مريم!؟».

نينة مريم عجوز قبيحة، ليست أحدًا. لا أحد إلَّا الحبيب العاشق.

القِطَّة البيضاء تنظر إلى خطوط الأمواج البيضاء متوالية الانبلاج من الأفق المظلم بعينَين مزرورتَين، تتابع تدافعها حتَّى تتكَسَّر على صخور شاطئ كسول تغمره أضواء ذهبيَّة تشعّها لمبات أعمدة الفلورسنت.

«صرتِ مُهتمَّة بلحظات موتِك يا صُوفيًّا!».

«لأنَّني صرت جميلة، لا بُدّ للجميلات من أحبَّة يُودّعهن، أريد لحظة موت تنسيني كُلَّ ألم عشته في هذه الحياة».

تنظر القِطَّة البيضاء (بين الفينة والأخرى) إلى صُوفيَّا الجالسة بكرسيِّها في الرُّكن، منهمكة في قراءة المشهد الأخير من «العصافير تُغنِّي على أغصان الأشجار» للَّيلة الثَّالثة على التَّوالي.

سكن موج البحر. صدر صُوفيَّا مرجل يَئزّ بشهيق البكاء.

أذان الفجر.

لم تُغلق الكتاب كالعادة؛ رفعت وجهها عنه فرأت عينَي القِطَّة تنظران إليها بتركيز، وسمعتها تهمس متسائلة: «ماذا لو لم تقرأي الرِّوايات يا صُوفيَّا؟».

«القِطَّة تُكلِّمني!».

لحظة عجب لم تطل؛ ففي الرِّوايات كُلُّ شيء يتكَلَّم، حتَّى الحصى، لاحت إشعاعات أنوار الشُّروق، ظهر قِطٌّ ضخم عند أوَّل السُّلَّم. ماء مواءً خافتًا وهو ينظر إلى القِطَّة البيضاء.. انتبهت لوجوده فأدارت رأسها ناحيته بعينَين نشيطتَين.. نهضت من إقعائها وقفزت إلى الأرض. مشت إليه بخطوات بطيئة، كأنَّها تتدَلَّل.. تلامسا برأسيهما.. دفعا الباب النِّصفيَّ حُرّ الحركة واختفيا هابطَين السُّلَّم.

«لو لم أقرأ الرِّوايات لبقَيت معاقة، أنام بعد غروب الشَّمس وأصحو مع الشُّروق. أعيش النَّهار كما تعيشه أيُّ معاقة تنتظر الموت مثلما تنتظر وجبات الطَّعام.. تعيسة.. أصُبُّ لعناتي على الرَّبِّ يسوع لأنَّه خلقني معاقة».

رائحة اليود تتفاقم.. صيحات النَّوارس.. لسعة نسيم صباح وليد.

ريح وديعة تراقص شعر القِطَّة الغزير، كيف لا تزال مقعيَّة بمواجهتها! ألم تكن مضت مع قِطّها العاشق قبل لحظات؟!

دقَّت أجراس كنيسة العذراء، وصدحت الزَّرازير بالشقشقة.

سألتها القِطَّة: «لكنَّك تبكين طويلًا وأنتِ تقرأين الرِّوايات!».

«يا قِطَّة: ربنا مُحبّ، لو خلقني مكتملة لما اكتشفتُ العالم بين أغلفة الرِّوايات، ربما كنت اهتمَّيت بدراسة، بعمل، بعريس، بأسرة وعيال، وتنسرب الأيَّام مِنِّي لأموت من غير اكتشاف روعة هذا العالم، أبكي لأنَّ الجمال ينفد».

دفعت كُرسيَّها بين النَّواطير. دخلتْ غرفتها.. ألقت «العصافير تُغنِّي فوق الأغصان» على المنضدة وألقت جسمها في الفراش.

قبل أن تغمض فَكَّرت في أنَّ اللحظات الأخيرة (التي ستسبق موتها)، ستكون في غاية الصُّعوبة إذا لم تقضها بصحبة حبيب.

«الرِّجال (مهما أحببن الجميلات) لن يحببن ناقصات الأطراف منهن».

انسدل جفناها وهي تسمع صوت خالد يترَدَّد في تلافيف عقلها مُحرِّضًا سلمى: «كوني يا صُوفيَّا قَويَّة الإرادة كأفعى».

دمعتان طفرتا من زاويتَي عينَيها المغلقتَين.. تُفكِّر في أنَّها كائن يعيش خارج العالم وينظر إليه بالرِّوايات! لا يمكنه العيش فيه.

لو أنَّها بنت مكتملة الجسم (بساقَين طويلتَين وذراعَين متناسقَين) لعاشت داخل العالم.

العالم هو الحقيقة.. لا الرِّوايات.

تَبًّا للرِّوايات.

- 9 -

تغلق السَّيدة مريم مكرم نعيم مَحلَّها في تمام العاشرة ليلًا وتعود إلى شَقَّتها، تأكل طعامًا خفيفًا تتخَلَّص به من الجوع، لا تتعامل مع الأطعمة كمصدر إمتاع منذ تعَرَّضت لتلك المصيبة الكبيرة.

ليس الطَّعام فقط ما تمارسه تحت ضغط، كُلُّ حاجاتها تؤدِّيها اضطرارًا، حتَّى عملها كحائكة ملابس، الحرفة التي لم تكن تتصَوَّر في شبابها أنَّها (وهي خرِّيجة السِّياسة والاقتصاد) ستلجأ إليها كخيار وحيد لمواصلة الحياة!

تنهي طعامها.. تغادر المطبخ.. تعبر الصَّالة.

فيما تدخل غرفة نومها تُضيِّق خطوتها كأنَّها تُقدِم على دخول غرفة تعذيب.

تخلع ملابس الخروج وتدلف إلى سريرها بعد إطفاء الإضاءة. تجلس مُكوَّرة حول نفسها وتنظر في المرآة.

كم مَرَّة تعاهد نفسها بأنَّها لن تنظر في هذه المرآة أبدًا؟ كم مرَّة تنوى إزاحتها بعيدًا عن قبالة سريرها؟ كم مرَّة قَرَّرت تحطيمها عندما لاحظت أنَّها (مهما أزاحتها من مكانها) تظَلّ مريم الحقيرة تطلّ عليها منها؟

لا أزاحتها، ولا حطَّمتها، ولا توَقَّفت عن النَّظر فيها.

أكَّدت لنفسها: «سأفعل عندما أعرف متى بدأ شرخ حياتي، وكيف؟ لا بُدَّ أنَّ هناك لقطة من ذكرياتي فيها الإجابة التي أبحث عنها طول

العمر الفائت».

مريم الحقيرة تأخذ في الظُّهور على سطح المرآة ببطء طيفًا يبتسم ابتسامة شِرِّيرة.. مزيج من غيظ وسخرية وتَشفٍّ.

ترفع عينيها عن المرآة وتُخبِّئ وجهها في ذراعَيها المعقودَين على صدرها.

«ساعدني يا رَبّ لأعرف متى بدأ الشَّرخ».

تضيء شاشة ذاكرتها في ذات الوقت تسمع صوت سقوط جسد ثقيل تبعته على الفور صرخة رعب شَقَّت قلبها.

ترى أباها يدلف (بجسده السَّمين القصير) من باب الفيلا مُنهكًا. يَشدّ أنفاسه بجهد. وجهه في لون حَبَّة فراولة فاسدة. نظر إليها نظرة غضب غائمة. كأنَّه شرع في سَبِّها لكنَّه لم يتمَكَّن. عاجله فقدان الوعي فسقط مُرتطمًا بخشب الباركيه. أمُّها تصرخ.

نُقِل إلى المستشفى. أُجرِيَت له الفحوص والتَّشخيصات الطِّبِّيَّة. جلطة في المُخّ. أكَّد الأطبَّاء أنَّه سيتجاوزها بخسارة؛ والشَّلل النِّصفيُّ ليس خسارة فادحة إذا كان الموت هو أفدح الخسائر.

طوال الوقت الذي قضاه الدُّكتور مكرم نعيم لوقا (وكيل وزارة الخارجيَّة المِصريَّة) في المستشفى رفض استقبال ابنته رفضًا قاطعًا، وكُلَّما حاولت الأمُّ استدراجه لمعرفة سبب هذا الرَّفض القاطع يزوم (بحشرجة تنبثق من بين شفتَيه الملتويتَين كاستغاثة جرو) مُبديًا ضيقه بمحاولاتها، وعدم رغبته في الحديث.

صَرَّحت المستشفى بخروجه فرفض العودة إلى الفيلا التي شهدت

ميلاده وطفولته ومراهقته وزواجه؛ والتي عاش فيها حياته الطَّويلة حتَّى لحظة السُّقوط، وانزاح إلى شَقَّة متوسِّطة المساحة (يمتلكها في الدُّقِّي) ليقضي فيها ما تَبقَّى من عمره.

ظَلَّ مُصرًّا على عدم استقبال مريم إلى أن مات؛ ولم تعرف الأُمُّ سبب المصيبة التي حَلَّت بها لكنَّها شعرت بأنَّ شيئًا مرعبًا ارتكبته ابنتها يتعلَّق بالشَّرف، لا بالإيمان، فكثيرًا ما جادلت مريم أباها في المُقدَّسات رفضًا لها؛ وكان يغضب لذلك، ويتَّهمها بالإلحاد مَرَّة، أو بالهرطقة مَرَّة، ويُحذِّرها من العواقب المُجتمعيَّة مَرَّة، ومن غضب الله مَرَّة. قال لها إنَّ الرَّبَّ يسوع (مهما كان مُحبًّا ومُتسامحًا) لا يقبل الهرطقة، وسيأمر كنيسته بحرمانها لتجد نفسها في النِّهاية ملقاة في أرض النَّدم والدُّموع، محرومة من الملكوت، وكانت البنت تلوي عنان المناقشات لتتَّهم أباها بممارسة ذُكوريَّة بغيضة، لأنَّه في الوقت الذي يُعطي كُلَّ الحُريَّة لوجيه يحاصرها هي حتَّى يكاد يخنقها، ورغم جميع تلك النِّقاشات الدِّينيَّة الحادَّة واعتراضاتها الحاشدة لم يتلوَّن وجه أبيها مرَّة واحدة بهذا الاحمرار المُسودّ.. لم يصل غضبه إلى هذا الحدّ النَّفسيّ القاتل.

تعيد السَّيدة مريم مكرم نعيم التَّأمُّل في لقطات هذا المشهد المِفصليّ الذي تراتبت عليه بقيَّة مشاهد حياتها.

ها هو عصفور الكناريا الميكانيكيُّ يقفز من مكانه في صندوق السَّاعة الخشبيَّة العتيقة ليرفرف مُشقشقًا بالسَّاعة الثَّانية عشرة ظهرًا. بخِفَّة ونشاط تهبط مريم درجات السُّلَّم الأنيق من الطَّابق العلويّ إلى بهو الفيلا. حان ميعاد الغداء، وأزف ميعاد خروجها إلى كُلِّيتها..

ستأكل طعامها خطفًا قبل أن تمضي، في البهو (بينما تخطو إلى غرفة الطَّعام) سمعت صوت مُحرِّك سيَّارة والدها، وقبل أن تندهش لعودة أبيها من عمله مُبكِّرًا عن المعتاد أَزَّ الجرس أزيزًا مسعورًا لسبب لا تعرفه وبدلًا من أن تركض باتِّجاه الباب لتفتحه تيَبَّست مكانها! هرول الخادم ليفعل ذلك فيما تصنع قدماه المُتشنِّجتان ضجيجًا على باركيه الأرضيَّة. خرجت أمُّها من غرفة الطَّعام مذعورة.

فُتِح الباب.

دخل الدُّكتور مكرم نعيم لوقا بجسمه السَّمين لاهثًا وقد احتقن وجهه بحمرة داكنة، في ذات اللحظة التي رأت فيها عينَيه تنظران بغضب إلى عينَيها لمحت عصفورًا يشُقّ الفضاء خارج الفيلا، كما أنَّ اخضرار شجرة التِّين يتماوج وراء الدَّلفة المفتوحة من الباب، كأنَّها صورة في قاع حوض مليء بالمياه الصَّافية.. رأت شفتَي أبيها تختلجان، يرغب في قول شيء شعرت يقينًا أنَّه سباب.. حدث كُلُّ هذا في ثلاث ثوان فقط! لذلك (عندما تهاوى) لم يكن بمستطاع الخادم اللحاق به قبل ارتطامه بخشب الباركيه.

سقوط الكبار مُفزِع.

كأن أجسامهم أبراج شاهقة إذا تهاوت تصَدَّعت لتداعيها القلوب وجفلت الأبصار وارتبكت العقول.

أرادت أمُّها قول شيء تُعبِّر به عن الهول الذي عصف بها (وهي ترى رجلها العزيز يسقط منهارًا) لم يتمكَّن عقلها من إيجاد العبارة المناسبة، فخرج ما بداخلها مُنفلتًا بصرخة رعب مُدوِّية.

- 10 -

لطالما باهى أبونا هارون شعبَ المسيح (في الكنيسة) بأنَّ ملامح وجه طفلته الصَّغيرة ملامح مريميَّة، وكثيرًا قال:

ـ عندما تكبر ستكون الخالق النَّاطق سِتّنا مريم العذراء، المرسومة في الصُّور والأيقونات رَبَّة حسن وجمال، وآية عِفَّة وتَبتُّل.

بنفس هذا القدر الهائل من الثِّقة والمباهاة صار أبونا هارون غاضبًا ومكلومًا، وقد استقى ذراعه (من الغضب والكلوم) فاشتَدَّ بالمرارة، واستحلى التَّعذيب.

بالسَّوط مزَّق جلد مريمه الصَّغيرة، وفتك بمفصل ذراعها الأيسر، وقضم عَصبًا من ساقها اليسرى، وشقَّت ذبابة طرف السَّوط شفتَيها، وفقأت عينها اليسرى، وقصمت أنفها.

شوَّه البنت.

نقل عيد الخادم تفاصيل الواقعة إلى عامَّة الشَّعب المَسيحيّ لتتسرب منهم إلى المسلمين الذين تناقلوا الحكاية (بدورهم) فيما بينهم بانبهار شامت:

ـ القسيس مسك ولده وجيه راكبًا أخته مريم.

لم يتَحمَّل أبونا هارون فجيعته ولا صبر لتبعاتها فانهَدّ حيله ولزم بيته يومين، وفي فجر اليوم الثَّالث حلَّق روحه إلى الأمجاد السَّماويَّة وزحف جسده إلى المقبرة.

في الثَّلاثة أيَّام ولياليها (السَّابقة لتَنيُّحه) عاتب الأبُ هارون يسوعَ المسيح، اشتكى له شِدَّة مرارة الكأس؛ وأنَّه لم يفهم يومًا الحكمة من اشتراطه تَخلُّص الأثرياء من أموالهم إذا أرادوا اتِّباعه.

مشى عيد الخادم بين المَسيحيِّين المنتشرين في حقولهم وورش صناعاتهم ومَحال تجاراتهم، ونقل لهم الحوار الذي دار بين الرَّب يسوع المسيح والأب هارون، فقال:

ـ أنا خادم أبينا هارون.. ألزمه في صِحَّته، فكيف لا ألزمه في مرضه! كان في فراشه. صليبه في يده يرتعش.. وناظراه في أيقونة الرَّب.. سأله بصوت الأموات: «هل كان يجب عليَّ إعطاء أموالي للفقراء تَخلُّصا من إثمها؟ وإن أعطيتها للفقراء ألا أكون أزحت الإثم عنِّي إلى غيري؟ إذا كان الفقراء يا رَبّ مُتخلِّصين فعلًا من إثم حيازة الأموال فلماذا نطالب الأغنياء بتفريق الإثم عليهم؟». أنا لم أسمع إجابات رَبِّنا يسوع المسيح.. أنا عيد.. من عوامِّ الشَّعب.. والعَوامُّ لا يُكلّمهم الرَّبُّ مباشرة كما يكلم القدِّيسين فيسمعوه، نحن بقر وجاموس لا نفهم مثل بني آدم. والمسيح الحَيّ لو تَكلَّم معنا يسوع لنحرق دمه بغبائنا، أنا لم أسمعه وهو يُكلِّم أبانا هارون لكن هو سمعه، فقال: «إن كان المال خطيئة فلنتلفها، لا نزيحها إلى الفقراء، لكن يا ربَّنا: إذا لم يكن هناك مال فأيُّ شيءٍ يكون الإنسان غير مخلوق بَرارِيٍّ حقير!». وظَلَّ أبونا هارون يُكلِّم أيقونة رَبَّنا يسوع المسيح المُعلَّقة قبالته على الجدار، يُكلِّمه عن المال، وأنا مُتعجِّب وأسأل نفسي: «أَيُّ شيءٍ أمرضه وألقى به في أهوال الموت: المال، أم خطيئة طفلته مريم؟!».

وفي الليل البهيم، والصَّمت ثقيل، وليس من صوت سوى هسيس تنفُّس الظَّلام، وعيد الخادم يغُطّ في نوم عميق، تَكلَّم المسيح بنبرة واضحة، وبَيَّن للأب هارون خطأ أفكاره.. قال له: «الرَّبُّ لم يفضحك عقابًا لأنَّك كنزت الأموال.. كفى بالإنسان عقابًا أن يكنز ماله.. الرَّبُّ لم يعاقبك من قبل، ولم يكن ينوي فعل ذلك، لِمَ يعاقب الرَّبُّ الإنسان إذا كان الإنسان يجيد عقاب نفسه!».

ثُمَّ قال له بجلاء: «إذا لم تتَحلَّ بالرَّحمة تَحلّ بالحكمة، هل في الأرض عاقل يستدعي خادمه إلى موضع فضيحته! لم يفضحك الآبُ لأنَّك كنزت مالك، هذا الغاطُّ في نومه فضحك لأنَّك لم تعطه منه».

عندما عَلُق مكرم نعيم لوقا في لُجَّة الهمِّ والمرض وهن جِدًّا، حتَّى أنَّه لم يعد قادرًا على القيام بأقَلِّ حركة، رغم ذلك ظَلَّ قادرًا على بتر توَسُّلات صُوفيًّا له بأن يرحم صغيرته ويأمر بفَكِّ وثاقها ورفعها عن الصَّليب. ورغم وهنه الشَّديد كان قادرًا على تشييع صُوفيًّا بنظرات ازدراء جارحة لأنَّها (بدلًا من أن تدرك عمق الجُبِّ الذي ألقت بهما فيه ابنتها المجرمة فتحضّه على الخلاص منها) ها هي تستسلم لغريزة الأمومة! هذا إذا لم تكن (ويا للعار) تُبرِّر لها فعلتها بغريزتها كأنثى!

يتأوَّه أبونا هارون ويقول:

ـ آه يا آدم! يا مسكين! لا ننطق بموعظة في الكنيسة إلَّا وجهنا إليك اللوم، ووصمناك بالخطيئة! لكن يا رَبّ: ما يفعل آدم إذا استهدفته امرأة ناضجة تقصد غوايته! ها أنا أهلكتني طفلة عمرها أربع سنوات لم تقصد غوايتي! والمسيح الحَيّ لأحرمَنَّ من يُقدِّم لها لقمة عيش أو

شربة ماء. دعوها تموت مصلوبة. وأنتِ يا صُوفيًّا تكونين زانية (مثل ابنتِك) لو لم تخضعي لي.

خضعت صُوفيًّا لزوجها مكرم نعيم لوقا مقهورة، وكانت من قبل تخضع له مَرضيَّة، تعلَّمت أنَّ خضوعها لزوجها يقيم حياتها التي لا تُقام إلَّا بزوج راضٍ. أمَّا هذه المَرَّة فتشعر أنَّ خضوعها ربما لا يُرضي الرَّبَّ إذا كان خضوعًا يقتل أمومتها.

تأوَّهت صُوفيًّا، وقالت:

ـ آه يا يسوع. هل الحياة إلَّا أمومة؟ مريم طفلة صغيرة يا رَبّ. لا تدرك ما تفعله، لكن أبونا هارون يعاقبها كأغلظ الفرِّيسيِّين قلبًا وأعظمهم خطيئة. أبونا لم يتعَلَّم منك سوى الرِّئاسة. آه يا بنتي.

رحم يسوع صُوفيًّا فألهمها التَّصرُّف كزوجة خاضعة وأُمٍّ ملهوفة في ذات الوقت، وأيَّدها بروح القُدُس ليمنحها حسن التَّدبير.. دعت عيد الخادم وقالت له:

ـ ها أنا لم أحمل خبزًا بيدي ولا كوب ماء.. أنت تعرف مكان سَلَّة الخبز وتعرف مكان المزيَرة.. خذ منهما واذهب لبنتي المسكينة.. اطعمها واسقها.. ألا يكفيها أنَّها تموت على الصَّليب رعبًا وألمًا! أرجوك.. ليس جَيِّدًا أن تموت جوعًا وعطشًا أيضًا!

أخذ عيد خبزًا وماءً ومشى (رغم كبر سِنِّه) بنشاط إلى قلب الحديقة في ساعة من ساعات العصر حتَّى صار بصدد الصَّليب، مريم جسم صغير بالكاد يظهر على الجذع مثل ورم مُبعَّج لا ملامح له.. رأسها مُدلًّى إلى صدرها.. ثقل جسمها يدفع به للانزلاق نحو الأرض إلَّا

أنَّ وثاقها المحكم يمنعها. رَقَّ عيد لها وخاف منها؛ قال في سريرته: «طفلة صغيرة جمالها ملائكيٌّ تتحوَّل إلى كائن مفزع الشَّكل، وتنزف حياتها قطرة قطرة على هذا الصَّليب الـ...».

أوشك على أن يسُبَّ الصَّليب والنَّجَّار الذي صنعه والقَسَّ الذي زرعه.

دَسَّ بين شفتَيها لقمة فلم تأكلها، علقت اللقمة بين شفتيها إلى أن سقطت، حاول سقيها فلم تشرب، كانت تتَنفَّس بثقل شديد في إغماءة عميقة.

رأى الخادم أنَّ البنت تموت فهرع إلى أُمِّها يضرب الأرض بقدمَين حافيتَين دكَّتهما وعورة الحقول وطرق القرى فيبسا جِدًّا وتشقَّق كعباهما، وقال لها مبهورًا:

ـ بنتك تموت.

- 11 -

صرخت السَّيدة مريم مكرم نعيم صرخة مكتومة قبل أن ترفع وجهها من بين ذراعَيها المعقودَين على صدرها.. دموعها تنساب ساخنة.. رأت وجه مريم القبيحة في المرآة مُشوَّهًا ينظر إليها بحنق ويهتف: «لقد استحقَّ ما جرى له، فليحلّ المصير البائس بكُلِّ رجل يُعلِّق شرفه الشَّخصيّ بفرج امرأة».

تجعَّد وجه مريم المرآة وهي تقهقه كالمجانين، واستدركت بخبث: «خصوصًا لو كانت امرأة بشرف هَشٍّ، ما الذي فعلتيه يا مريم فأغضب أباك حتَّى الموت!».

ـ لم أفعل شيئًا.

«حُطِّ عينِك في عيني!».

أحاطت مريم مكرم نعيم بذراعيها حول ركبتَيها وهمست:

ـ حبَّيت رفيق، زميلي في الكُليَّة.

شعرت مريم المرآة بأنَّ مريم مكرم نعيم تستعبطها، فزامت مثل كلب يوشك على الانفجار نباحًا، وقالت: «لا يصاب الآباء بالشَّلل ويموتون لمجرَّد أنَّ بناتهنّ يقعن في الحُبِّ، إنَّهم يغضبون.. يزعقون.. يضرِبون.. يقاطعون، ليس أكثر!».

ـ ذهبتُ مع رفيق إلى شَقَّته.

بوغتت مريم مكرم نعيم بمريم المرآة وهي تبصق عليها وتزعق: «سافلة».

كفأت وجهها إلى ركبتَيها وأخذت تنتحب، قالت:

ـ لم أفعل شيئًا مشينًا أستحقُّ عليه هذه الإهانة.

«مُجرَّد الذِّهاب مع شابٍّ إلى شَقَّته انحطاط لا يليق بفتاة تحترم نفسها».

رفعت وجهها وصرخت في مريم المرآة:

ـ أنتِ دائمًا ضِدِّي!

صمتت مريم المرآة تستوعب اعتراض مريم مكرم نعيم، إذ نادرًا جِدًّا ما كانت تبادلها الحوار فضلًا عن الاعتراض عليها، ثُمَّ ها هي تصرخ في وجهها!

أجابتها: «أنا معك يا مريم.. طوال الوقت أنا معك.. كم مَرَّة أقول لكِ: دعكِ من فيلم الذِّكريات الكئيب هذا؟ آلاف المرَّات، مع ذلك لا تنصتين لي، لأنَّكِ فيما يبدو لي تستمتعين بالكآبة، فهمتُ هذا الأمر أخيرًا فأحببت أن أزيدك استمتاعًا، عمومًا أنتِ لستِ سبب ما حدث. فما الضَّير في حُبِّك لرفيق؟ ما الضَّير لو صحبتيه إلى شَقَّته ونمتِ معه في فراشه؟ الحقيقة هي أنَّ أباك عاش مُنغلقًا؛ لماذا يُعلِّق الرِّجال شرفهم بين سيقان النِّساء؟!».

ـ لكنِّي لم أنم مع رفيق! لقد جلسنا في الشُّرفة، تكلَّمنا وفقط.

بحلقت مريم المرآة بحِدَّة في عينَي مريم مكرم نعيم وقالت: «لقد دخلتِ معه شَقَّته بمفردك دون علم أبوَيكِ، حتَّى لو أقمتما قُدَّاسًا لتمجيد الرَّبّ فقد ارتكبتما الخطيئة».

تأوَّهت مريم مكرم نعيم آهة خاطفة إثر إحساسها بنصل سِكِّين يشرخ ما بين ضلعَين أسفل ثديها الأيسر. تخرج من بينهما الخنفساء فاردة جناحيها الحادين كالشَّفرات. تطير نحو المرآة وتقف على إطارها.

ـ لماذا أضع مشاعر (تخُصّني أنا ورفيق) تحت عيون سوانا وإن كانت عيون أبي وأُمِّي؟!

كيف اكتشف الدُّكتور مكرم نعيم لوقا هذه العلاقة السِّريَّة (المشينة!)؟

ظلَّت مريم تبحث عن إجابة هذا السُّؤال طوال السِّنين التي انقضت بعد وفاة أبيها، أُمُّها لم تتوَصَّل لشيء، فقط حدسها أكَّد لها أنَّ الأمر يتعَلَّق بشرف ابنتها.. ابنتها ارتكبت شيئًا فظيعًا.. لم تسع الأُمُّ لمعرفة جريمة ابنتها لكن بقيت تدينها إلى أن ماتت هي الأخرى. رفضت معاملتها كابنة.. قتلت شعورها بالأمومة تجاهها.. صارت مريم بالنِّسبة لها مُجرَّد بنت غريبة تقيم بمفردها في الفيلا القديمة، وتخشى على ابنها وجيه منها! ولم تُحدِّثها سوى مرَّة وحيدة (عبر الهاتف) أبلغتها فيها بأنَّ أباها (قبل موته) أوصى بشيءٍ يخُصّها.

طقطقت الخنفساء أجنحتها.. دَسَّت مريم وجهها بين ركبتَيها كي لا ترى شكلها المُقزِّز لكن أذنَيها (رغمًا عنها) بقيتا مفتوحَتين تستقبلان صريرها: «ذهبتِ إلى شَقَّة رفيق بقلب منخور يا مريم.. لو سارت الأمور على ما يرام لكنتِ استلقيتِ تحته».

رفعت رأسها.. هَزَّته باستنكار وقرف.. مريم المرآة تبتسم بخبث. طارت الخنفساء في فضاء الغرفة (كطلقة رصاص) وارتطمت بالمصباح المُطفأ المُتدلِّي من السَّقف ثُمَّ ارتدَّت إلى الجرح المفتوح

أسفل ثديها الأيسر لتتسلَّل منه إلى مخبئها المعتاد.. حاولت السَّيدة مريم مكرم نعيم الإمساك بها كي تتَخلَّص منها إلى الأبد لكنَّها كانت أسرع بالنَّفاذ إلى داخل القلب، وفتحة صدرها سبقت إلى الالتئام.

تنفَّست بضيق.

لكن؛ عليها العودة إلى محاولة إجابة سؤالها القَدريّ: كيف اكتشف الدُّكتور مكرم نعيم لوقا علاقتها برفيق؟

تتمَنَّى لو أنَّ الإجابة لا تضعها موضع السَّبب في شلله ورقوده في فراشه حتَّى الموت. ولتعرف أُمُّها كم كانت مخطئة بظنونها بالغة السُّوء تجاهها.

تستعيد المشهد مرَّة أخرى بطيئًا جِدًّا.

ـ كيريااليسون.

كادت تهتف:

ـ ها هي.

«اللقطة».

اللقطة التي تكشف عن براءتها من التَّسبُّب في شلل أبيها وموته.

باب الفيلا المفتوح.. العصفور يطير.. أغصان الشَّجرة تتماوج.. عينا أبيها تنظران إليها بغضب طاغ..

تُثبِّت الصُّورة بعد تقريبها. ها هما عيناه تملآن شاشة ذاكرتها، واسعتان فزعًا، الغضب يُعبِّئ أوردتهما الدَّقيقة بدم مشتعل، وبياضهما يخالطه اصفرار!

اصفرار انكسار مفاجئ.

ـ لو كان يشُكّ فيّ لما فوجئ هذه المفاجأة المميتة. ثَمَّة من تعَمَّد

مباغتته.

قهقهت مريم المرآة كساحرة عجوز شِرِّيرة. قالت: «لا تتملَّصين من جريمتِك. التَّقرير الطبِّي أثبت أنَّ أباك تعرَّض لخبر غير مُتوقَّع بشكل مفاجئ، أبوك سياسيٌّ داهية، له خصوم، ولن يخرج الأمر عن كون أحد هؤلاء الخصوم قد باغته بالكشف عن فضيحة، من بطلة هذه الفضيحة يا مريم؟ أنتِ. كوني صريحة مع نفسِك لتستمتعي بأكبر قدر من الكآبة».

فكَّت عقدة ذراعيها من حول ركبتَيها وألقت بظهرها إلى الفراش.. أغلقت ذاكرتها بعنف.. دَوَّى خبط الإغلاق في أنحاء داخلها، لكنَّه دَويٌّ لم يحجب عن أذنها صوت أُمِّها يأتيها عبر الهاتف حزينًا مُحطَّمًا، باردًا محايدًا. تقول:

ـ أبوكِ قبل صعوده إلى الملكوت قال لكِ: ضروري تذهبين إلى الكنيسة، وتعترفين.

- 12 -

غمر صُوفيًّا شوقٌ شديد لرجل حَقيقيٍّ، فعالمها مليء برجال افترَاضيِّين، أبطال روايات مشغولين عنها بحبيباتهم. حتَّى الوحيد منهم لم يشعر بوجودها، ولا سمع نجواها بالانتباه إليها، ولا أدرك أنَّها وحيدة مثله فتكون الأقدر على فهم وحدته، ولا أحَسَّ بها وهي تهدهده على كفَّيها لساعات طويلة، أو تضمُّه إلى صدرها أحايين عديدة. وفَكَّرت في أنَّ الرِّجال الحقيقيِّين ليسوا داخل الرِّوايات، إنَّهم يمشون في الشَّارع تحت العمارة، وتسمع أصواتهم عندما تتفاقم المشاكل بينهم أو يعلنون أفراحهم في مناسباتهم السَّعيدة.

لكن... تُفكِّر.

حتَّى هؤلاء الحقيقيُّون ليسوا من عالمها، إنَّهم ينتمون لضجيج الونس وهي تنتمي لصمت الوحدة، هم في عِزِّ الانسحاق وهي في عِزِّ التَّجلِّي، هي فوق العمارة وهم أسفلها، هي تُغيِّر أقدارها بقُوَّة التِّين والتُّوت الإلهيَّة وهم عبيد مستسلمون لأقدارهم.

مع ذلك فإنَّ شوقًا ساخنًا لرجل حَقيقيٍّ بدأ يغمر قلبها حدّ المشارفة على الاختناق.

القمر مكتمل في قلب السَّماء ومحاط بسحب بيضاء.. القمر رجل حَقيقيٌّ مضيء ومحاط بنساء بيضاوات.

بدافع من شوقها الجامح إلى رجل حَقيقيٍّ لجأت صُوفيًّا إلى أداء

حركة غاية في الصُّعوبة، تكاد تكون مستحيلة بالنسبة لما تعانيه من عجز، لا لشيء سوى أن تتمكَّن من النَّظر إلى الشَّارع علَّها ترى رجلًا حَقيقيًّا.

ثبتَّت كُرسيَّها في الرُّكن جَيِّدًا.. مدَّت ذراعيها ونشبت أصابعها في حافَّة السُّور.. تشبَّثت بها.. حاولت رفع جسمها.. لو لم تكن ذراعها اليسرى تعاني من هذا الابتسار المُخلّ لرفعت نفسها بسهولة، فقدت توازنها في أكثر من محاولة، كادت تسقط عن الكُرسيِّ في إحداها. القطَّة البيضاء مَقعيَّة على حافَّة السُّور ترقبها فيما تفتح عينَيها باندهاش. نَزَّ العرق من جبهة صُوفيًّا، نَزَّ من ذراعَيها، لكن بروح التِّين والتُّوت الإلهيِّين تمكَّنت أخيرًا من النَّظر إلى الشَّارع بنصف وجه وبعين واحدة. رأت السيَّارات والأضواء، ورأت رجالًا يتحرَّكون بأحجام الصَّراصير لا ملامح لهم، ليس ثمَّة شبه بينهم وبين رجال الرِّوايات!

هالها أنَّهم في الشَّارع مُجرَّد كائنات لا تكاد تُرَى بينما في الرِّوايات الواحد منهم يسدّ عين الشَّمس!

«ألأنني أنظر إليهم عن بعد من فوق؟!».

عادت إلى جلستها بحذر وهي تنهج لفرط ما بذلته من جهد؛ ولاكتشافها المحبط.

القطَّة تحملق في شاطئ البحر.. خطوط الموج البيضاء تتلوَّى كأفاعي تنساب بنعومة إلى فريسة تختبئ بين الصُّخور.. طيور ليل ضالَّة تخترق السَّماء فيما تطلق صيحات مخطوفة كالنَّغمة النَّشاز.

شرعت صُوفيًّا تفتح رواية الليلة: «شيء ثمنه مليون جنيه».

عنوان جذَّاب.

تُحبّ الرِّوايات ذات العناوين المثيرة للتَّساؤلات.. «شيء ثمنه مليون جنيه».

ما هذا الشَّيء الذي ثمنه مليون جنيه حتّة واحدة!

وسرعان ما انشطر السُّؤال إلى أسئلة عديدة مثل:

هل سيستحق هذا الشَّيء مليون جنيه فعلًا؟

لماذا ثُمّن هذا الشَّيء أساسًا؟

هل هناك من يستطيع دفع مليون جنيه ثمنًا لشيء؟

وهكذا.. العنوان غير التَّقليديّ ألقى بها مباشرة داخل آتون الرَّغبة العارمة في قراءة هذه الرِّواية، فانطلقت تفعل.. وما لبثت أن غرقت فيها حتَّى نسيت اشتياقها المُلحّ لرؤية رجل حَقيقيٍّ.

شريف سعادة (بطل الرِّواية) مفتون بحبيبته.. أسقطه في هوى الحُبِّ عضوٌ آخر من أعضاء جسم الأنثى غير العينَين والأنف والوجه، غير الصَّدر والخصر والرِّدفَين.

إنَّه شابٌّ سليل أسرة رأسماليَّة عريقة تحَدَّرت من سلالة باشوات الإقطاع، تعَرَّف على الرَّاقصة لولي في أحد كباريهات شارع الهرم، افتتن بساقَيها العريانَين رغم أنَّه من روَّاد المراقص، ولطالما رأى من سيقان الرَّاقصات بدءًا من الدَّرجة الثَّالثة وصعودًا إلى أشهرهنّ نُجوميَّة، لكن ساقَي لولي مختلفتان. بدتا له لا ترقصان لمساطيل الخمر والشَّهوة، لا ترتعشان اصطناعًا، وإنَّما تضطربان بتأثير موسيقى تئنّ وجعًا، موسيقى تصدر عن خلايا فخذَيها ووركَيها وربلتَيها. ساقا لولي ترتعشان بحزن صادق (يعصف بهما) فتُرقِّصهما طلبًا للإسعاف.

وكانت صُوفيًّا قد حملت وجهًا فيه عينان طبيعيَّتان وأنف منتصب وشفتان شهيَّتان؛ لكنَّها إلى الآن مُقعَدة، بلا ساقَين.

لا يستطيع رجل حقيقيٌّ أن يُحبَّ امرأة لا ساقان لها، السَّاقان نصف المرأة، لكن يمكن لبطل رواية أن يُحبَّ نصف امرأة. هو رجل خَياليٌّ. من بنات أفكار كاتب يخلق الوهم، لا وجود لتَصوُّراته في غير عالم الرِّوايات.

«لو أصير حروفًا داخل رواية!».

حتَّى لو حصل ذلك، صُوفيًّا لم تقرأ (إلى الليلة) رواية وقع بطلها في حُبِّ امرأة بلا ساقَين.

لم تكن «شيء ثمنه مليون جنيه» رواية طويلة، فأنهتها وظلام ما قبل الفجر يركد ثقيلًا في ثنايا السَّماء، وثقيلًا على مُكوِّنات الأرض. الإسكندريَّة نعسانة.. البحر سوادٌ قلق.

«العالم الحَقيقيُّ مُقرف بِجد».

ذرفت عينا صُوفيًّا دمعتَين.. النِّهاية الحزينة للرِّواية ألمَّت بها.. لذلك (عندما حرَّكت كرسيَّها بين النَّواطير) لم تكن مهمومة (هذه المرَّة) ببطلة الرِّواية وبطلها؛ بل بكاتبها!

«الكُتّاب قُساة».

دفقة ريح باردة أرعشت النَّواطير وكادت تدفع بالكُرسيِّ إلى الاصطدام بأحدها لولا أنَّ صُوفيًّا انحرفت انحرافًا يسيرًا كسرت به عزم الدَّفقة وأعادت الاتِّزان إلى مسار كُرسيِّها.

طائر جرفته الرِّيح فاصطدم صارخًا بأحد أطباق استقبال البَثّ. اختلَّ توازنه للحظة لكنَّه عاد إلى غبش السَّماء يطير مرتبكًا.

«وضع الله قلوبًا من حجر في صدور كُتّاب الرِّوايات».

دخلت الغرفة. لمبة زُجاجيَّة بَيضاويَّة تضيئها إضاءة خافتة صفراء.. وضعت الرِّواية على المنضدة.. أطفأت اللمبة. نقلت جسمها إلى السَّرير.. دخلت تحت غطائها.. رائحة اليود تخترق الفُرَج بين الألواح الخَشبيَّة كفراشات رشيقة تسارع إلى لهب نار ساطع الضّوء.. صاح مؤذِّن الفجر.

ـ الله أكبر.. الله أكبر.

شريف سعادة (بطل رواية «شيء ثمنه مليون جنيه») هو من لفت انتباه صُوفيًّا إلى منطقة لم يسبق أن التفتت إليها: المرأة ساقان!

حزمة آشعَّة رفيعة (صادرة عن لمبة السَّطح فقيرة الإضاءة) انسلَّت من فجوة عشوائيَّة في جدار الغرفة الخشبيّ لتسقط على وجه المسيح المرسوم في صورته الكبيرة المُعلَّقة بمواجهتها.

لولي هجرت شريف سعادة، فامتنع عن الخروج، حبس نفسه في فيلَّته المنعزلة في صحراء الإسماعيليَّة، أغلق هاتفه وانقطع عن العالم، كان يمكن للولي مواصلة الهجر لو أنَّها استمرَّت تراه في خلفيَّة حياتها، فمجرَّد وجوده (ولو في الخلفيَّة) يمنح حياتها طعمًا مستساغًا؛ لكن أن يختفي تمامًا! أن تصبح حياتها بلا خلفيَّة! أن تتحَرَّك دنياها في فراغ!

لم تصبر طويلًا، استَقلَّت سَيَّارتها وانطلقت إليه.

عندما فُتِح الباب ارتمت في حضنه.. ضحك وبكت.. وبكى وضحكت.. وضَمَّت صدره إليها، فضَمَّ وركَيها إليه بنشوة ملصقًا فخذَيه بفخذَيها.

ـ عيب عليك. أنت شَهوانيٌّ.

ـ أنا شهوانيٌّ!؟ أنا لو شَهوانيّ لما اعتزلت الحياة.

ـ شهوانيٌّ يا شريف. أنا أضمُّ قلبك لقلبي وأنت تضمّ.....

ـ أنا أضُمُّ هُويَّتك كأنثى.

ـ ....!

ـ لا تندهشي يا لولي. كُلُّ ما فَوق سُرّة المرأة يمكن تحويله إلى ذُكوريّ. تحت لأ.

ـ .....!

ـ المرأة ساقان يا لولي.

صُوفيًا تُفكِّر في أنَّ كاتب الرِّوايات (رغم شعوره بالقُرَّاء ومعرفته إلى أيِّ مدى ينتظرون النِّهايات السَّعيدة) يُصرّ على خلق الحزن، ويُبدع في سرد النِّهايات المفجعة.

«كأنَّه يستمتع بتقطيع قلوبنا حتّة حتّة!».

تنحشر دفقات الرِّيح المندفعة بين الشُّقوق فتصرخ بالصَّفير المتناحر، كأنَّها أصوات جِنٍّ لاهية، رائحة اليود تروح وتجيء.

رفعت عينَيها إلى صورة المسيح وسألته بنظرة لوَّامة:

ـ لماذا وضعت في صدور الكُتَّاب قلوبًا قاسية؟

نزلت عيناها من علياء صورة الرَّبِّ وتسَحَّبتا زاحفتَين فوق الغطاء، إلى المكان الذي كان على ساقَيها أن تملآنه لو كان لها ساقان.

أعادت صُوفيًا ناظرَيها إلى وجه المسيح.. نظرت فيه طويلًا.. إنَّه وسيم جِدًّا.. في عينَيه مَحبَّة تليق بإله عطوف مع ذلك فيهما حزن بَشريٌّ!

«ربما حزين لأنَّه هو نفسه يُبدِع البؤس مثل كُتَّاب الرِّوايات».

سكنت الرِّيح وارتفع أذان الفجر بحنجرة كئيبة:

ـ الله أكبر. الله أكبر.

انكمشت صُوفيَّا تحت غطائها، إذ أنَّ الصَّوت الكئيب أخذ يتعاظم:

ـ لا إله إلَّا الله.

خطوات قطط فوق سقف الغرفة. ربما القِطَّة البيضاء وقِطّها العاشق يتبادلان الحُبَّ في أعلى مكان من العمارة!

«قلوب الكُتَّاب شربت القسوة من نبع قلبك يا يسوع».

وجه المسيح ساطع بدفقة الضّوء السَّاقطة عليه، إنَّه معها في هذه الغرفة منذ سنين طويلة، يرى عذاباتها اليَوميَّة، يدرك حرمانها من مشاعر ضَروريَّة، مع ذلك ظَلَّ في صورته المُعلَّقة مُلتحفًا بصمته المريب وبنظرته المُلغِزة. لم يبادلها كلمة واحدة ولا أرشدها إرشادًا واحدًا إلَّا مذ بدأت تقرأ الرِّوايات وأخذت تكتشف قدراتها الخارقة كبنت وُلِدت من مزيج حيوان التِّين المَنويّ ببويضة التُّوت.

«هل يُجبِر كُتَّاب الرِّوايات الآلهةَ على مَدِّ يد العون للبشر؟!».

صارت على يقين من أنَّها لن تستطيع التَّعرُّف على رجل حَقيقيٍّ لو لم تمتلك ساقَين.

فيما تغفو سمعت الرَّبَّ يسوع المسيح يقول لها: «لتكن لك ساقان مثل ساقَي لولي فتكتملين وتكونين أفضل جِدًّا وتستحقِّين رجلًا حقيقيًّا».

دقَّت أجراس كنيسة العذراء لصلاة باكر.

لم تنم صُوفيَّا، ستنتظر نينة مريم وتطلب منها حاجة مُهمَّة جِدًّا.

- 13 -

ذُهِل عقل صُوفيًّا (امرأة السَّيِّد مكرم نعيم لوقا المُسمَّى في الكنيسة أبونا هارون) عندما سمعت عيد الخادم يقول لها بصوت مُمزَّق:

ـ بنتك تموت.

دقَّت صدرها بكَفِّ يدها، وهتفت بهلع خفيض محشور:

ـ يا كبدي يا مريم!

دخلت مهرولة إلى عمق البيت، وضعت طرحة سوداء على شعرها الفاحم وجلبابًا أسود على جسمها البَضِّ المحشوّ في بشرة ناصعة البياض مُتورِّدة.. وضعت نقودًا وذهبًا من حُليِّها في حافظة جِلديَّة صغيرة.. خرجت مهرولة من عمق البيت.. انفلتت من الباب الخلفيِّ إلى الحديقة تجري.. تتعثَّر في أرض زراعة غير مُمهَّدة.. تسقط وتقوم. تسقط وتقوم.. حتَّى لاح الصَّليب الضَّخم القائم بأعلى جبل جلجثَّة وقد رُبِطت إليه خرقة من لحم بشر.

ـ يا ضنايا يا بنتي.

مريم لا تعي شيئًا.. كانت تعي وتتألَّم قبل يومَين.. الآن لا تعي ولا تتألَّم.. تموت.. مع ذلك سمعت صوتًا حميمًا رحومًا ينتحب مناديًا الله:

ـ يا يسوع.

وشعرت بشفرات السَّكاكين ترتفع أخيرًا عن مفاصلها وجيدها

وخصرها؛ صُوفيًّا تنزع الحبل الذي يشُدّ وثاق مريم إلى الصَّليب فيما تلهج مرعوبة:

ـ انجديني يا أُمَّ النُّور.

أَحَسَّت مريم بهدهدة، وبراحة، وأنَّها أخيرًا ذاهبة للاستغراق في نوم السَّكينة، لا للاستغراق في غيبوبة الألم التي واصلت استنزافها ليومَين وثلاث ليالي.

أراحتها صُوفيًّا على كتفها مثل جوال بالٍ وسارت تحملها من قريتها إلى مركز ديروط.. دنيا ظلام وطريق طويل مهجور إلَّا من كلاب تتهارش على حوافِّه وتنبح السَّائرين ليلًا.. صرير حشرات الحقول.. نقيق الضَّفادع.. وكُلَّما استفاقت مريم من غفوتها استفاقة خاطفة تسمع دقَّات قلب صُوفيًّا لحنًا حزينًا يتناغم مع همسها الباكي الموتور:

ـ كيريااليسون.

تفكر صوفيًّا: «هل أمشي في كابوس! ليتني أكون ماشية في كابوس. الكابوس مهما طال غفوة أصحو منها. لكن يا مُرِّي لو كنت صاحية الآن! هل صلب مكرم ابنته وتركها نهارَين وثلاثة ليالي بالجوع والعطش.. آه يا قلبي الجافي! أنا أيضًا صبرت وقتًا طويلًا أنتظر رَبَّنا يسوع المسيح يتَحنَّن على الأب هارون فيُرقِّق قلبه على بنته.. كيف صبرت نهارَين وثلاثة ليالي ومريم جوعانة عطشانة مصلوبة مرعوبة! أنا قاسية مثل مكرم.. الرَّب تأخَّر، والأب تأخَّر، والأم تأخَّرت!

ـ كيريااليسون.

لا تأمَننَّ الزَّمان فإنَّه غدَّار. صُوفيًّا كانت سِت سِتَّات الشَّعب

المسيحيّ في القرية التي بها الكنيسة، وسِتّ سِتَّات النُّجوع التَّابعة لها. امرأة بَطَّة بَضَّة لا تقوم من مكانها إذا عطشت، لكن تقول: «أنا عطشانة هاتوا أشرب»؛ فتهبّ مائة امرأة يحملن إليها كوب ماء زلال مُبرَّد. ولا تقوم من مكانها إذا جاعت، لكن تقول: «أنا جوعانة هاتوا آكل»؛ فتهبّ مائة امرأة يحملن إليها صينيَّة مُدوَّرة عليها ما لذَّ وطاب من الطَّعام الحاضر. لفرط العِزّ وأكل الوزّ ظهر قدم صُوفيَّا للنَّاظرين زجاجًا شفَّافًا يكشف دمها عاريًا وهو يمرح في عروقها بلون الورد البلديّ الأحمر. غدر بها الزَّمان. وغدر الزَّمان إذا وقع بالفقير الذَّليل شديد، لكن إذا وقع بالغنيِّ العزيز يكون أنكى وأشَدّ. الفقير الذَّليل لا يُفقِده غدر الزَّمان شيئًا كثيرًا، لكنَّه يسلب الغنيَّ العزيز مُقوِّمات سيادته، فيقع الوقعة التي ما منها قيام.

صُوفيَّا ثَقُلت بمريم، وثَقُلت بالطَّريق الطَّويل تمشيه في أنصاف الليالي بخوف ورعب.. مَرَّت بنجع غارق في النَّوم.. بدت بيوته في وحشة الصَّمت قبورًا عملاقة، فأيقنت صُوفيَّا من أنَّها لا بُدَّ نائمة وتعيش كابوسًا، فمن المحال أن تنقلب الحياة بها هذا الانقلاب الفظيع لو أنَّها مستيقظة، الانقلابات المريعة تحدث فقط في الكوابيس. رأت مَزيَرة على جانب الطَّريق .. مالت إليها.. شربت منها وهي تبكي. همست لنفسها مُتعجِّبة: «أنا أعاف كوب الزَّجاج المغسول عشر مرَّات بالصَّابون، وها أشرب بكوز صفيح صدئ من ماء ربما لعقته كلاب السِّكك!».

سمعت مريم أُمَّها تهمس بحرقة بينما تتجَرَّع ماء المزيَرة:

ـ كيريااليسون.

في محطَّة ديروط جلست صُوفيًّا على الأرض تنتظر القطار، فَتَّشت ابنتها، فهالتها الجروح وقطوعات الجلد وتشويهات الوجه والأعضاء التي مُنيَت بها الصَّغيرة، هذه ليست ابنتها مريم التي تعرفها، هذه مريم مسكينة، هيكل عظميٌّ مُفكَّك تتعَلَّق به الحياة بالكاد، رفعت صُوفيًّا وجهها مُدوَّرًا صلدًا مثل طست نُحاسيٌّ وقالت لرَبِّ السَّماء:

ـ أُكلِّمك بكلام طالع من حتّة في قلبي لا يطلع كلامي منها إليك إلَّا سمعتني وفهمتني وأرضيتَني: يا ربّ.. خذ هارون.. إنَّه لم يتعلَّم منك رحمة.

أنهت مخاطبة الله ودخل القطار المحطَّة هادرًا يصرخ بنفير كئيب طويل؛ في ذات نفس اللحظة دخل عزرائيل هادرًا على مكرم نعيم لوقا صارخًا باسم الموت في كوكبة من ملائكة باكين تقبض بأجنحتها آلات نزع الأرواح من الأجسام، وما أن طلع القطار (من محطَّة ديروط إلى القاهرة) حاملًا صُوفيًّا وابنتها حتَّى طلع عزرائيل حاملًا روح الأب هارون (من الأرض إلى السَّماء) مُشبَّعًا بقهرة إحدى أروَع غدرات الزَّمان.. الرَّجل (في لحظة خاطفة) فقد الشَّان والشِّنشان والهيلمان وحُبَّ المرأة التي لم تعرف غيره على طول الزَّمان!

- 14 -

علاقة الحُبِّ بين مريم مكرم نعيم ورفيق علاقة غير حَقيقيَّة. مُدَّعاة. مُجرَّد تحَدٍّ شرعت نصله في وجه التَّعنُّت الذُّكوري الذي مارسه أبوها ضدَّها. لكن ما أن حاد النَّصل عن قلب التَّعنُّت ورشق في قلب أبيها (فقتله) حتَّى كرهت هذه الأداة وتخلَّصت منها بسرعة وحسم.

كأنَّها لم تلتقِ يومًا بشخص اسمه رفيق!

ورأت أنَّ هذا الإجراء ليس كافيًا لتخليصها من براثن النَّدم فقرَّرت تنفيذ ما اعتبرته وَصيَّة والدها: «الذِّهاب إلى الكنيسة والاعتراف».

وقفت الخنفساء فوق سطح التَّسريحة اللامع (بين عبوات البارفانات والكريمات الأنيقة) وصوَّبت إلى مريم عينَين مملوءتَين مكرًا، وهسهست كعقرب: «ستعترفين لمن!؟».

لسنوات عديدة مضت لم تدخل كنيسة إلَّا أنَّها تتذكَّر الطُّقوس جَيِّدًا؛ فقد حرص والدها (منذ صغرها) على اصطحابها إلى هناك لتأدية صلوات الآحاد وصلوات الأعياد وغيرها من مناسبات يُمجَّد فيها اسم الرَّبُّ ويُشكَر على تَدخُّلاته الطَّيِّبة في حياة الإنسان.

ـ سأعترف للكاهن طبعًا!

طقطقت الخنفساء جناحَيها وواصلت الهسيس: «لماذا الكاهن؟».

لأنَّه يبسط يده على الذَّبيحة (الإنسان الخاطئ) ويرفع خطاياها عنها

فيضعها على رأس المسيح دون أن يكون بمقدورك إصابته بشيء من شرورك يا شيطان.

طقطقت الخنفساء بجناحَيها وقفزت لتقف فوق رأس تمثال برونزيٍّ صغير لطفل يحمل لمبة إضاءة وقالت: «ها نحن نتَعقَّل. أراك تعترفين بأنَّك خاطئة!».

ـ لست خاطئة. إنَّها إجابة سؤالك: لماذا الكاهن؟

«ربما الأجدر بي هو أن أسألك: لماذا كاهن، لا كاهنة؟».

لم يفاجئها السُّؤال بصيغته الجديدة، فهو سؤال قديم طالما ترَدَّد بين تلافيف عقلها هكذا: «لماذا أب اعتراف، لا أُمَّ اعتراف؟!».

ترفض دخول الكنيسة لاعتقادها بأنَّها ضِدّ المرأة؛ وإذا ذهبت لتأدية طقس الاعتراف فإنَّها لن تفعل ذلك على الرَّحب والسِّعة إيمانًا به، لن تعترف بأريحيَّة نفس، إنَّما محاولة لإزالة ندم طاغ عَشَّش في قلبها مثل سرب خفافيش مَصَّاصة دماء؛ إنَّها تمرَّدت بطريقة خاطئة أودت بأبيها إلى الموت، أبوها الذي واصل خوفه عليها حتَّى وهو يموت بسببها، فيطلب منها الاعتراف كي تتَطهَّر فتستأهل الملكوت.

لطالما خاف أبوها عليها بشكل غير صحيح.

لكنَّه لم يعد هنا لتستمتع بممارسة تَمرُّدها عليه، فعلت ذلك وانتهى الأمر إلى كارثة مُروِّعة، عليها الآن التَّواضع لروح الرَّاحل الذي لن تنكر أنَّه أحبَّها (ولو بشكل غير صحيح) لكنَّه الشَّكل الذي كان يفهمه، عَلّ روحه يستريح.

صباح ثقيل (صباح ذلك اليوم الذي ذهبت فيه إلى الكنيسة).

الهواء بارد بما يناسب أجواء الشتاء مع ذلك شعرت برئتَيها تتنفَّسان هواءً ساخنًا، تداهم أعصابها المرتخية انتفاضات خاطفة في باطن الرُّكبتَين وأعلى كتفَيها وأوسط ظهرها، قلبها مُتضخِّم يدُقّ أضلعَها بضربات مطرقة حَديديَّة على سنديان صُلب، تعاني جميع أعراض الهزيمة السَّاحقة.

ويلها!

إنَّها تستسلم استسلامًا مهينًا. ستُنكِّس رأسها في كنيسة طالما استعلت عليها بأفكار بنت جامعيَّة مُتحرِّرة تدرس السِّياسة والاقتصاد، تؤمن بأنَّ الدِّين هو ما يخضع للسِّياسة والاقتصاد (ليس العكس)، لكن ها هي (بكُلِّ ما في رأسها من سياسة واقتصاد) تخضع لمشاعر قلبيَّة ساذجة.

فكَّرت في أنَّ الدُّكتور مكرم نعيم لوقا مات وانتهى أمره، فلماذا تحرص على تنفيذ وصيَّته التَّافهة!؟ ولو كان أبًا عادلًا (يساوي بينها وبين وجيه في المعاملة) لفهمت الدَّافع الذي يجعلها تُقدِم على ارتكاب هذه الحماقة، لكنَّه عاش أبًا ظالمًا، إذا صنعت هي ووجيه أمرًا جَيِّدًا كافأه بأكثر مِمَّا يكافئها، وإذا صنعا أمرًا سيِّئًا عاقبها بأكثر مِمَّا يعاقبه.

«لكن لا تنسى لمساته الحانية يا مريم».

لم تكن تمُرّ ليلة إلَّا ودخل غرفتها ليطمئن على راحتها في نومها. يفرد عليها الغطاء، يُمرِّر كفَّه على رأسها، أُمُّها لم تكن تفعل ذلك، ولم تكن أُمُّها التي لحقتها في آخر نفس فأنقذتها من الكابوس الذي أوشك على أن يقتلها رعبًا وهي نائمة؛ أبوها من أنقذها.

«حدث ذلك وأنا طفلة صغيرة جِدًّا. قبل أن أُكمِل عامي الرَّابع».

في بهو كنيسة قرويَّة.. جدرانها قديمة.. تمثال كبير بحجم إنسان طَبيعيٍّ للعذراء مريم (أُمُّ النُّور) ينتصب يمين المذبح بمواجهتها. لم يكن التَّمثال دقيق النَّحت، فأظهر وجه السَّيدة مريم مُرعبًا، عينان واسعتان مطموستان بالبياض.. شفتان مقصوصتان ينِزّ مكانهما لون أحمر فاقع.. ذراعان غير متناسقتين، إحداهما أطوَل من الأخرى، وإحداهما أرفع من الأخرى. كانت مريم وحيدة في البهو تسمع صوت أنين، بمواجهتها المذبح، وثَمَّة رجل يلبس جلبابًا أبيض وبرنس مُذهَّب يُغطِّي رأسه يقبض على سكين ويشرع في حَزِّ رقبة امرأة مستلقية باستسلام على المذبح. أضواء الشُّموع لا تنشر النُّور في البهو بقدر ما تنشر الخوف.. قلب مريم الصَّغيرة ينبض بأسرع من دوران ماكينة خياطة.. تشعر بضيق شديد يجتاح صدرها. ترغب في الصّراخ.. تحاول إطلاق صرختها. الحنجرة لا تطاوعها في الوقت الذي رأت السِّكين تحِزّ رقبة المرأة فتتفجَّر منها نوافير الدَّم.. تمثال أُمِّ النُّور يتَّجه إليها مادًّا ذراعَيه المشوَّهتين باتِّجاهها.. عيناه المطموستان بالبياض لا تحيدان عنها.. يريد القبض عليها.. حاولت أن تجري هاربة لكن ساقَيها (كما حنجرتها) رفضتا مطاوعتها.

انسلَّت إلى داخل الكنيسة بقدمَين مرتبكتَين. يعتريها خجل، شعب الرَّب (رجالًا ونساءً وأطفالًا) يجلس خاشعًا على الأرائك المتوازية. تسَرَّبت إلى رئتَيها رائحة بخور طَيِّبة، وفكَّرت في أنَّ هذا العبق المُتصاعد من مجامر انتشرت في الأركان الخفيَّة من بهو الكنيسة ليس إلَّا أحد عناصر التَّخدير الدِّينيّ.. على وجدانها الانتباه والحذر، لا أن يتَخدَّر..

واعية.. وتفهم أنَّ ما تُقدِم عليه ليس غير تخَلٍّ لوقت قليل عن ممارسة التَّمرُّد لصالح ممارسة التَّناقض! إنَّها تُقدِم على فعل ما لا تؤمن به لأجل روح عاش صاحبه يُملي عليها حُبَّه (بشكل غير صحيح)! على ذلك فهي تبادله الآن الحُبَّ (بشَّكل غير صحيح) أيضًا.

جلست في الأريكة الأخيرة متضامّة حول نفسها تكاد تتكوَّر. خجلانة كمراهقة تجلس لأوَّل مرَّة داخل سينما تعرض فيلم حُبّ، لكن في أقلِّ من لحظة خاطفة انتزعتها ترانيم الأناشيد من خجلها لتقذف بها في فضاءات السَّكينة، والموسيقى الرُّوحيَّة شرعت في بذل محاولة جادَّة لترويضها.

شعرت بالخنفساء تنسحب إلى ركن بعيد من قلبها، مع ذلك سمعت طقطقة جناحيها، وهسيسها واهنًا: «إنَّهم يُغنُّون في الأوبرا غناءً أفضل، ويعزفون موسيقى أفضل؛ إيَّاك والاستسلام لمغازلات رخيصة يمارسها هؤلاء الكهنة لجذب الزَّبائن».

«أنا فاهمة».

تختلس نظرات خاطفة للرُّسومات الزيتيَّة الَّتي تُزيِّن مساحات واسعة من جدران الكنيسة، وللمنحوتات البارزة منها، فيتأكَّد لها عدم أهميَّة المرأة هنا؛ فجميعها صور ومنحوتات للمسيح وحواريِّيه، وحتَّى لأعدائه راكعين خاضعين بين يدَيه يوم الدَّينونة، ولا صورة واحدة لامرأة سوى صورة مريم العذراء، والَّتي لو لم يرتضها يسوع إناءَ ناسوته (يفيض منه ببَشريَّته) لما كان لها كرامة بذاتها.

هكذا بدا لمريم أنَّ تمثال أمّ النّور ينظر إلى تحت قدميه بذِلَّة، يؤلمه

أنَّ هالة الكرامة المحيطة به ليست لذاته على الحقيقة، إنَّما لكونه مُجرَّد إناء احتوى الذَّكر المُقدَّس لبعض الوقت.

طقطقت الخنفساء جناحيها: «فلتغادري إذن؛ لماذا تُصرِّين على الجلوس في مكان ذُكوريٍّ كهذا!».

تقاوم صرير الخنفساء. تنتبه إلى أنَّها جاءت لأداء مُهمَّة مُحدَّدة لا علاقة لها بالإيمان من قريب أو من بعيد، وستؤدِّيها كي لا تتعَرَّض لتبكيت النَّفس في أيِّ وقت لاحق.

سمعتْ الكهنة ينشدون المزامير؛ وسمعت موعظة عتيقة تداهن الإنسان، تغويه برفق الآب، حتَّى إذا ما اصطادته قمعته باسم الآب.

وأخيرًا حان وقت طقس الاعتراف.

بينما تَحرَّك شعب الرَّبّ في بهو الكنيسة (ببطء) تجاه القَسّ الَّذي سيناولهم جسد المسيح طعامًا مباركًا ويسقيهم دمه شرابًا سائغًا جلس أب الاعتراف في ركن (قرب المذبح) مُستعدًّا لرفع الخطايا عن رؤوس الشَّعب المسيحيّ ووضعها على رأس يسوع، ليتخلَّص منها ابن الله بمعرفته.

وقد رآها أب الاعتراف تخطو نحوه مرتبكة يحتوشها الخجل، كأنَّها لن تعترف اعترافًا صُوريًّا وينتهي الأمر، بل ستتَعرَّى! خصوصًا و قد انتبهت إلى أنَّ هذا الأب لم يحترز من النَّظر إليها بعينَين نافذتَين.

بدا لها في أوَّل أربعينيَّات عمره، بعض التَّجاعيد الخفيفة طفت على زوايا ملامح وجهه القَمحيّ، يتمتَّع بنحافة تمنح صاحبها رونقًا خَلَّابًا. عيناه مُكحَّلتان.. شاربه خفيف.. ذقنه حليق.

صارت بمواجهته فأشار إليها بالجلوس على كرسيِّ الاعتراف. جلست مُتردِّدة.

إنَّه خبير بمشاكل الجالسات مثل هذه الجلسة المرتبكة، خاصَّة إذا كُنَّ في سِنٍّ صغيرة مثلها (تتجاوز العشرين بالكاد) ولعَلَّ تخمينه لم يذهب إلى أبعد من كونها فتاة مَسيحيَّة صالحة تُحبّ سِرًّا، ما جعلها صريعة إحساس داهم بارتكاب خطيئة عظيمة، وهي هنا لتعترف وتتوب.

عندما ظلَّت صامتة (لأكثر من دقيقة) مازحها مبتسمًا، بنبرة مُحقِّق قال:

ـ اعترفي أحسن لك.

ابتسمت (وقد كفأت وجهها إلى الأرض خجلًا) مواصلة الصَّمت. قال:

ـ لا يُخجلك شيء يا ابنتي. لست وحدك من يقع بين براثن الشِّرير، حتَّى الرَّب نفسه وقع بين براثنه، المهم هو أن نتجاوز الاختبار بإيمان قَويٍّ.. أنا هنا لأساعدك.

أخيرًا همست:

ـ أنا لم أفعل شيئًا مُخجلًا.

ـ هذا طَيِّب. إذن قولي ما جئتِ إلى هنا لقوله.

شعرت بعدم الرَّاحة لجلوسها على هذا الكُرسيّ؛ يُسرِّب إليها إحساسًا مقيتًا بالتَّصاغر أمام جليسها المُقدَّس.. كأنَّها فتاة قعيدة عاجزة!

ـ لم أجيء لقول شيء.

وجهها لم يزل منكفئًا إلى الأرض، مع ذلك شعرت بحاجبَيه

الكثيفَين وقد اتَّسع تَقوُّسهما اندهاشًا.. اجتاحتها رغبة قَويَّة في رفع وجهها والنظر إليه.. عندما فعلت وجدته استدار ناحيتها بجميع جسمه ينظر إليها مُتعجِّبًا.. لاحظت أنَّ نحافته لم تمنع صدره من أن يكون عريضًا، يتَوسَّطه صليب خَشبيٌّ بُنيٌّ محروق تدلَّى من رقبته بدكنة لامعة فوق ثيابه ناصعة البياض.

ـ ولم جئتِ إذن؟

ـ لألبِّي رغبة أبي.

ـ هذا طَيِّب جدًّا.. أنتِ فتاة تطيعين أباكِ! هذا نادر في زماننا.

ابتسمتْ بأسى؛ فها هم الكهنة لا يتلبَّسهم الرُّوح القدس الَّذي يمنحهم القدرة على كشف دواخل أبناء الشَّعب ومعرفة حقائقهم كما يزعمون!

ـ أنا فتاة عصت أباها حَدّ قتله.

امتقع وجهه لنصف دقيقة اخترقت فيها همهمات الشَّعب في الكنيسة (فيما يتناول) مع شقشقة عصافير تطير في أنحاء البهو طبلتَي أذنَيها كضجيج قطار سريع.. أخيرًا همس أب الاعتراف بصوت مخطوف:

ـ وتقولين إنَّك لم تفعلي ما هو مخجل!

ـ نعم، أنا لم أفعل؛ أبي فعل.

عاد الكاهن بظهره إلى الوراء وقد انصهر وجهه بتصوُّر مُقزِّز غاية في اللاآدميَّة؛ هل تعرَّضت هذه البنت البائسة للاغتصاب من أبيها؟

همست مريم، بصوت بالغ الخفوت:

ـ ممكن أمشي الآن؟

لم يسبق لأحد أن جلس على هذا الكرسيّ وغادره دون اعتراف. لكنَّه (ككاهن رحيم يلتمس الأعذار لشعب الكنيسة) فكَّر في أن ربما ما تعَرَّضت له المسكينة أصعب من أن تتكلَّم فيه بأوَّل جلسة اعتراف؛ وأنَّ التَّجربة الَّتي وضعها فيها الشَّيطان أكبر من احتمالها الإيمانيّ فتحَطَّم بسهولة، حتَّى أنَّها نهضت وغادرت قبل أن يسمح لها بذلك!

بخطوات مرتبكة اتَّجهت إلى باب الكنيسة وخرجت غير مهتمَّة حتَّى بالحصول على بركة التَّناول.

- 15 -

(على غير عادتها) لم تتمكَّن السيِّدة مريم مكرم نعيم من النَّوم بعد أن أنهت خدمتها الصَّباحيَّة المعتادة لصُوفيًّا. بقيت مستيقظة محتارة في ما طلبته منها قبل قليل.

«طلب غريب جِدًّا. صعب التَّحقيق جِدًّا!».

في الظَّهيرة (وهي تخرج من باب العمارة إلى الشَّارع) فَكَّرت في إن كان عيد البَوَّاب يصلح لهذا الأمر! لكن سرعان ما وبَّخت نفسها: «إن كنتِ تحرصين على انتقاء أفضل وأجود الرِّوايات لها، فالأجدر بكِ انتقاء أفضل وأجود رجل حَقيقيّ مُتاح». عيد البَوَّاب يشبه هارون كثيرًا، مع ذلك شتَّان الفرق بين روح عيد وروح هارون؛ عيد مُقرِف متغطرس بعجرفته وتَكبُّره. هارون سماويٌّ جَذَّاب برِقَّته وتواضعه. النَّاس أرواح خصوصًا الرِّجال. عليها انتقاء رجل حقيقيٍّ مهما كلَّفها ذلك من جهد وإراقة حياء.

كيف تعرض على أحدهم الذِّهاب به إلى بنت لا لشيء سوى أنَّ (البنت) ترغب في رؤية رجل، دون أن ينظر هذا (الرَّجل) إلى طلبها باعتبارها قوَّادة!

تجاوزت باب العمارة دون مبادرة عيد بالتَّحيَّة، وانداحت في البحر البشريِّ الدفَّاق في الشَّارع.

فتحت محلَّها. وألقت بجسمها على الكُرسيِّ (خلف ماكينة الخياطة).

«البنت حاجاتها قليلة جِدًّا؛ لكن غريبة جِدًّا!».

عيد البَوَّاب لن يصلح لهذه المُهمَّة أبدًا. إنَّه جار لصيق. وفكَّرت في أنَّ الجار اللصيق يسيء فهم الطَّلبات الغريبة لجاره، وقد يبني على فهمه المسيء تَصوُّرات أكثر سوءًا، وربما يفضحه بهذه التَّصوُّرات المسيئة في أقرب فرصة ممكنة؛ الغرباء أفضل، لأنَّهم يؤدُّون ما يُطلَب منهم ويغادرون بعيدًا إلى حال سبيلهم، أساؤوا الفهم أم لم يسيؤوا، ليس مُهمًّا إذا لم يكن الالتقاء بهم متاحًا بعد ذلك.

أراحت السَّيِّدة مريم مكرم نعيم وجهها بين كفَّيها حيرة وعجزًا؛ لا تعرف بالفعل كيف تطلب من أحدهم اصطحابه إلى صُوفيَّا، في ذات الوقت لا تستطيع تجاهل رغبتها التي بدت وكأنَّها أمنيتها الوحيدة في الحياة!

ـ كيريااليسون.

طلب أصعب من توفير ثلاثين رواية جديدة أوَّل كُلّ شهر.

ـ مساء الخير.

صوت الزّبون إيَّاه (صاحب القميص الذي شرعت في إصلاحه فانقطعت الكهرباء وغادر على أن يعود بعد يوم أو يومَين).

رفعت وجهها من بين كفَّيها بسرعة.. رسمت ابتسامة مصطنعة على وجهها.. أجابته بتحيَّة هامسة:

ـ مساء الخير.

رجل حقيقيٌّ! رجولته ظاهرة ومكتملة.. عريض الجبهة.. شعره

غزير. لحيته خفيفة.. جسمه ممتلئ قليلًا.. طويل قليلًا.. يرتدي ملابسه بإهمال يتَعمَّده كثير من الشَّباب (جريًا مع مودة العصر).. كاميرته الكبيرة في حقيبتها الجلديَّة السَّوداء تتدلَّى من كتفه.

ـ أخبار الشُّغل بتاعنا؟

نبرة صوته تنبئ عن رجل لديه ثقة كبيرة في نفسه.. مُصوِّر محترف بكُلِّ تأكيد؛ إذا كان كذلك فيُفترض بالمُصوِّرين المحترفين تَوقُّع الأحداث الغريبة والتَّعامل معها باحترافيَّة عالية، قيمة اللقطة المُصوَّرة ترتقع بقدر ما تحمله من اختلاف وغرابة، قد يكون هو الشَّخص الأنسب لتَفهُّم رغبة صُوفيًا.

«ماذا لو عرضتُ عليه مساعدتي في تحقيق هذه الرَّغبة المختلفة؟!».

دقَّ قلبها بعنف، صدى ترَدَّد مُدوِّيا داخل صدرها: «كيرياليسون».

كادت تشهق بنفسها الأخير وهي تشير إليه بالجلوس وتقول:

ـ تفضَّل. دقيقة واحدة وأنهي كُلَّ العمل.

ابتسم ابتسامة باهتة ولم يجلس.. أخرج كاميرته من حقيبتها الجِلديَّة.. ضغط على أزرارها فأضاءت شاشتها.. وبينما السيِّدة مريم مكرم نعيم تطوي القميص وتضعه في شنطة بلاستيكيَّة أخذ ينظر باستغراق في الصُّور المتتابعة على الشَّاشة.

تذكَّرت هارون (وهو ينظر باستغراق إلى عصفور الكناريا داخل قفصه). الشَّبه كبير جِدًّا بينهما!

باعدت بين شفتَيها تشرع في الكلام وعرض طلبها عليه، لكن سرعان ما أطبقتهما بينما تهمس لنفسها بنبرة زاجرة: «هذا جنون.. هذا عيب».

العيب يا سِت مريم هو ألَّا تُحقِّقين لصُوفيَّا أمنيتها لمُجرَّد أنَّها تبدو أمنية غير لائقة!

سمع الزُّبون صوت السَّيِّدة مريم مكرم نعيم وكأنَّه يخرج من حنجرة تحتضر:

ـ ممكن أطلب من حضرتَك طلب؟

رفع وجهه إليها وقد باغته السُّؤال.. ارتبك بدوره.. فما الذي قد تطلبه حائكة ملابس عجوز (مُشوَّهة المنظر وأستغفر الله العظيم) من شابٍّ ألقته الصُّدفة البحتة كي يتعامل معها لأوَّل مَرَّة !؟

كرجل شهم لم يجد بُدًّا من الإيماء برأسه موافقًا.

ـ بنتي قعيدة.. تعاني من ظروف خاصَّة...

أوَّل ما طرأ على باله هو أنَّها ستطلب مالًا، وها هي لم تُخيِّب ظَنَّه.. أدهشه أنَّ المُتسوِّلين يُطوِّرون حرفتهم بمزيد من الابتكار، حتَّى أنَّهم صاروا يفتحون محلَّات حياكة للتسوُّل المُقنَّع!

ـ إنَّها تقيم في غرفة فوق سطح العمارة المجاورة.. لا أتذكَّر آخر مَرَّة رأت فيها الشَّارع، أو رأت النَّاس.. بنت مسكينة عاجزة مُشوَّهة تتنَفَّس ولا تعيش.. صباح اليوم طلبت مِنِّي.. هو في الحقيقة طلب غريب ومخجل!

صمتت.

استمَرَّ ينظر إليها نظرات شَكٍّ مُغلَّفة باهتمام مُدَّعى؛ (إنَّها لا تتسَوَّل فقط، إنَّها تُمثِّل ببراعة أيضًا!).

ـ طَلَبَت.. تريد أن ترى رجلًا على الحقيقة.

رفع حاجبَيه اندهاشًا.

همست بسرعة:

ـ اسمها صُوفيًّا.

ـ عمرها كم سنة؟

ـ لا أعرف. يمكن خمس وعشرون سنة.

قال وهو يهم بالمغادرة:

ـ استأذن.. سأعود إليكِ في غضون خمس دقائق.

بدا لها أنَّه بصدد اختلاق عذر يتمَلَّص به من إجابة طلبها بلطف، فسارعت إلى مساعدته؛ لم تُحبّ السَّيِّدة مريم مكرم نعيم يومًا أن تكون سببًا في أيِّ حرج لأيِّ إنسان.. ومعه حقٌّ، طلبها غريب فعلًا، ولا يمكن فهمه بعيدًا عن جميع التَّفسيرات الخاطئة الموجودة في الكون.

قالت:

ـ أنا انهَيت عملي؛ يمكنك أن تأخذ قميصك معك.

ـ حاضر.. سآخذه طبعًا، لكن بعد زيارة بنت حضرتك.

- 16 -

بينما تهمّ السَّيِّدة مريم مكرم نعيم بمغادرة غرفة صُوفيَّا (بعد أن قامت بتهيئتها ليوم جديد) نادتها:

ـ صُوفيَّا.

ـ نعم يا نينة.

ـ هناك رجل يقف خارج الغرفة.

شعرت صُوفيَّا وكأنَّ رعدًا ضرب أذنَيها، وصرعًا مفاجئًا أصاب قلبها فخبَّطه بين ضلوعها. انتصبت معتدلة في فراشها. أنفاسها السَّاخنة لفحت بشرة يد السيِّدة مريم مكرم نعيم فشعرت الأخيرة بكَمِّ الرُّعب الذي عصف بالبنت.

ـ لا تنزعجي. لو أحببتِ أصرفه.

ـ لا لا لا يا نينة. أريد أن أراه.

ـ إذن سأطلب منه الانتظار قليلًا حتَّى تُهيِّئين نفسك. عندما تنتهين آذن له بالدُّخول.

ـ لا. لا يدخل. وأنا لن أخرج. سأنظر إليه من أحد هذه الشُّقوق.

ـ لكنَّه يحمل باقة ورد يرغب في إهدائها لكِ!

ـ ورد!

قصص حُبٍّ كثيرة (داخل الرِّوايات) أشعلتها وردةٌ بين أنامل بطل

يُقدِّمها لبطلة فتذوب عشقًا فيه. الوردة كانت مُفتَتح مأساة علياء في رواية «سراب الحقيقة» التي انتهت بانتحارها عندما اكتشفت خداع أوَّل من خفق قلبها بالحُبِّ لأجله.. الوردة طُعم يُلقِمه الرِّجال مصائدهم فتلقفه قلوب النِّساء الجائعة.

«لن أسمح له باصطيادي!».

فوجئت مريم بصُوفيًّا تنتحب بدون صوت، فقط شهقات حادَّة مخطوفة.. سارعت باحتضانها.. سالت دموع ساخنة من عينَيها هي الأخرى.. همست في أذنها:

ـ انتهينا يا صُوفيًّا، سأجعله يغادر.

ـ لا يا نينة.. سأقابله.

«من أنتِ كي يسعى أحدُهم لاصطيادك!؟ أنتِ لا شيء».

خرجت السيِّدة مريم مكرم نعيم من غرفة صُوفيًّا، وقفت بجوار الشَّاب الذي اتَّكأ بظهره إلى جدار سور النَّاحية من السَّطح المقابلة للسُّلَّم، ابتسمت له ابتسامة طفيفة:

ـ أنا آسفة. فقط دقائق تستعدّ فيها لمقابلة حضرتك، لن تتأخَّر.

ـ على راحتها.

نظر حوله.. شَدَّ بصدره الهواء المُعبَّأ باليود.

ـ المكان جميل جِدًّا. الإسكندريَّة تكاد تكون مكشوفة بالكامل.. هل تسمحين لي بالتقاط بعض الصُّور للبحر من هذا الرُّكن؟

ـ أكيد.. تفَضَّل.

مدَّ يده لمريم بباقة الورد لتحملها عنه.. اتَّجه إلى الرُّكن الذي

اعتادت صُوفيًّا الجلوس فيه ليلًا. صوَّب عدسة كاميرته نحو البحر وانهمك يلتقط الصُّور.

نظرت السيِّدة مريم مكرم نعيم إلى باقة الورد المُلوَّنة، تجلَّت لها ذكرى خاطفة فهَزَّت رأسها بأسى، وهمست:

ـ لم يكن يعرف أنَّ في العالم كائنات جميلة اسمها ورد!

صُوفيًّا تتنَقَّل بكُرسيِّها في المساحة الضَّيِّقة داخل غرفتها بسرعة محمومة، تُعدّ نفسها بينما تراقب هذا الرَّجل الحَقيقيّ من بين الشُّقوق؛ إنَّه يقف في ركنها المُفضَّل، يُصدِّر لها ظهره.

لم تر ركنها يحتوي رجلًا من قبل.. تراه الآن.. الفرق شاسع. هو الفرق بين الموت والحياة.. بين امرأة حَقيقيَّة بلا ساقَين وامرأة رواية لها ساقان مكتملتا الأنوثة.

«ماذا يفعل؟!».

ارتخت أناملها فجأة عن شَدِّ فيونكة صغيرة حول شعرها المضموم..

«مُصوِّر!».

خيبة أمل انتهكت إقبالها. كانت انتهت من إعداد نفسها للمقابلة وعلى وشك الدَّفع بكُرسيِّها للخروج كي تلتقي به.. كي ترى رجلًا حقيقيًّا وتأخذ منه زهورًا.. تسمع صوته.. لكنَّها رأت كاميرته فقرَّرت إنهاء كُلّ شيء.

«ليس هو!».

رواية «ليس هو» شَرَّحت شَخصيَّة المُصوِّر.. كشفت أغوارها.. وكيف أنَّها شَخصيَّة مُستنقعيَّة راكدة تهيم الحشرات على سطحها!

ريهام (بطلة الرِّواية) لم تستطع تقَبُّل حسام رغم أنَّه لم يكن سَيئًّا في علاقاته الاجتماعيَّة، بل العكس، كان مُصوِّرًا ناجحًا يعمل في مؤسَّسة صَحفيَّة كبيرة، ولديه شبكة علاقات قَويَّة تثبت أنَّ هذا الرَّجل مؤهَّل لأن يكون مَحطَّ إعجاب أيَّة أنثى، مع ذلك لم يرق لريهام.

قالت لصديقتها منال:

ـ إنَّه مُحنِّط.

ـ مُحنِّط؟!

ـ نعم مُحنِّط. يصطاد اللحظة الحَيَّة ليُحنِّطها في صورة! سينظر لي دائمًا باعتباري لحظة حيَّة تحتاج منه تحديد أفضل زاوية ليُحنِّطها في صورة.

ـ على فكرة، أنتِ مبالغة جِدًّا يا ريهام.. إنَّه رجل مثل أيّ رجل، يبحث عن امرأة يحبّها وتحبّه!

ـ لست مبالغة.. فكرتك عن الرِّجال هي المُسطَّحة جدًّا.. افهمي.. اهتمامات الرَّجل العمليَّة تشي بما ستكون عليه طبيعة علاقته بالمرأة التي سيرتبط بها.. صدر المُصوِّر لن يكون يومًا لغير كاميرته يا حبيبتي..

«صدقتْ ريهام.. ها هو صدره لكاميرته وظهره لي!».

ـ نينة.

دخلت السيِّدة مريم مكرم نعيم إليها:

ـ هاه. مُستعدَّة؟

ـ لا يا نينة.. أنا صرفت نظر.. لا أريد رؤية رجال الآن. أنا آسفة..

دارت عينا مريم في محجرَيهما وهي تهمس:

ـ أنا محرجة جِدًّا منه.

صمتت صُوفيًّا صمتًا مُشبَّعا بالصَّدِّ.

آشعَّة شمس الزَّوال تراوغ بعض السُّحب العابرة وتنفلت منها لتقفز إلى سطح العمارة، تتسَلَّل من الشُّقوق الخشبيَّة وتتراقص على وجه صُوفيًّا وأغلفة رواياتها.

الهواء يُرقِّص خصلات بيضاء من شعر السيِّدة مريم مكرم نعيم وقد وقفت قبالة المُصوِّر الشَّاب.. تذبذب صوتها:

ـ أنا آسفة.. من فضلك التمس لها العذر.. قلت لك إنَّها تعاني من ظروف خاصَّة.

ـ لا يهمّ.. أنا مُتفهِّم. فقط أتمنَّى لو تسمحين لي بالتقاط صورة أخيرة.

أومأت له بالموافقة وقد علت وجهها ابتسامة امتنان كبيرة لتسامحه، مَدَّ يده إليها فأعطته باقة الورد.. أخذها.. اتَّجه بها إلى الرُّكن الذي كان يحتويه منذ قليل، بذل جهدًا ليتمكَّن من وضعها على حافَّة السُّور دون أن يطيح بها الهواء، صوَّب كاميرته إليها يريد التقاط صورة لباقة ورد خلفيَّتها أمواج البحر تضطرم اصطدامًا بالصُّخور فتصنع سحائبًا من رغوة بيضاء كثيفة تتقلَّب فوق سطح المياه الهائجة.

صُوفيًّا تواصل مراقبته، لا تُظهِر لها الشُّقوق بين ألواح الخشب سوى ظهره، مع ذلك ظنَّت لوهلة أنَّها تعرف هذا الرَّجل.

لكن.. هي لا تعرف غير رجال روايات خياليِّين!

«ليس هو».

عندما أنهى التقاط الصُّورة نظر إلى شاشة كاميرته يتفَحَّص جودتها تاركًا باقة وروده يطيح بها الهواء إلى الشَّارع فتناثرت مُشتَّتة في أثناء سقوطها.. تهادت هنا وهناك كفراشات مُلوَّنة، فيما صاح طائر نورس يعبر السَّماء مُتَّجهًا إلى البحر.

سطح العمارة مختلف هذه الليلة.. غريب.. تخلَّص من جموده تجاوبًا مع مرح أشاعه طيف هذا الشَّاب الذي تركه وغادر.

الرُّكن أدفأ من أيِّ يوم مضى.. أكثر إيناسًا.. لطالما ظَلَّ هذا الرُّكن مهجورًا لا يعمره سواها! المكان الذي يشغله شخص وحيد ليس معمورًا على الحقيقة، بزوال الشَّخص يزول عماره.. العمار ونس. والونس بشخصَين.

ستعيد صُوفيًّا قراءة رواية «هذا الشَّيء ثمنه مليون جنيه».. إنَّها الرِّواية التي تستفزّها للعمل على إنبات ساقَين.. ليس أيّ ساقَين، وإنَّما ساقان لا تقلَّان روعة عن ساقَي بطلة الرِّواية.

بسبب انعدام ساقَيها لم تخرج لمقابلة هذا الشَّاب اللطيف الذي كلَّف نفسه عناء شراء باقة ورد ليُقدِّمها لها.. اهتمَّ بها فأعَدَّ أفضل طُعم لاصطيادها؛ إنَّها معذورة.. فكيف تستطيع لقاء رجل حَقيقيّ إذا كانت هي نفسها غير حَقيقيَّة!

«أنا وهم.. لا أنا شَخصيَّة حَقيقيَّة في دنيا ولا خياليَّة في رواية.. أنا وهم!».

أما هو!

هو جميل.. نبيل.. مُحبٌّ للجَمال.. خجول.. لا يبخل بتقديم

المساعدة.. ومثل أيّ إنسان نبيل يغضب سريعًا إذا شَمَّ رائحة إهانة.

«يجب أن أكون حَقيقيَّة.. لا يجب أن أنتهي نهاية بائسة كأيّ وهم!».

لو أنَّ هذا المُصوِّر أحد أبطال رواية «ليس هو» وتعمَّد تصوير باقة الورد على حافَّة سور سطح عمارة ثُمَّ تركها للهواء العاصف يطيح بها مبعثرة إلى الشَّارع لعزت ريهام هذا التَّصرُّف فورًا إلى ما تصفه بالطَّبيعة المُستنقعيَّة لأرواح المُصوِّرين ورغبتهم العارمة في تحنيط اللقطات، تلك التي تفوق أيَّ رغبات أو أحاسيس إنسانيَّة أخرى!

«صدره واسع.. حضنه بمليون جنيه».

تتخيَّله وهو يميل إليها ويطويها في صدره.

لم تُمكِّنها ألواح خشب جدار غرفتها من رؤية وجهه، لكن الشُّقوق مَكَّنتها من رؤية ظهره، ظهر عريضًا منبسطًا يعاني أعلاه من حِنْية لا تكاد تُرى.. حِنْية اعتبرتها خاتم الجودة! فالرِّجال أصحاب الظُّهور المنحنية قليلًا يمكن الاعتماد عليهم أكثر من ذوي الظُّهور المستقيمة، دائما ما كان ذوو الحِنْيات هم المُحرِّكون الفعليُّون للأحداث (داخل الرِّوايات) بفيوضاتهم الإنسانيَّة الرَّائعة.. يعطون بلا مقابل، وملاجئ أمان تهرول إليها الشَّخصيَّات الرَّئيسية إذا تعرَّضت لأيّ مأزق!

«لم يقصد تصوير باقة الورد على خلفيَّة البحر».

هو شعر بالإهانة فانتقم لكرامته (مثل أيّ نبيل).. انتقم بشكل محترم.. ادَّعى التقاط صورة لباقة الورد على خلفيَّة البحر بينما الحقيقة غير ذلك.. لقد قصد وضع الورد في مَهبِّ الرِّيح لتعصف به إلى

الشَّارع.. لم يُرد ترك أثر له، الأثر الذي رآه يتحوَّل من رسالة حُبٍّ رقيقة إلى نعش جاف يحمل مشاعره الدَّافئة وقد وأدتها مشاعر بنت باردة!

«لو تركها!».

لم تستطع التَّركيز في قراءة «هذا الشَّيء ثمنه مليون جنيه»، فقد انهمكت (مرَّات عديدة) في محاولات مُجهِدة لتذكُّر في أيِّ رواية يمكن أن تكون صادفت هذا الشَّاب النَّبيل .. مُتأكِّدة من أنَّها رأته..

لو ترك باقة وروده لضربت بطقس ليلها عرض الحائط.. لما قرأت شيئًا هذه الليلة.. لقضت السَّاعات تلمس بأناملها آثار أصابعه التي أحاطت بسيقانها.

«سيقان الورد!».

«حتَّى الورد لا يكتمل بدون سيقان!».

لو ترك الورود لبقيت تشمّها طوال الليل، وتسمع هدير البحر، وتنظر للقِطَّة البيضاء المَقعيَّة على السُّور، وتحكي لها عن ذَكَرها الآدميّ الذي صعد درجات السُّلَّم لأجلها، وكيف أنَّها لم تتمَكَّن من الانطلاق معه (مثلما تفعل مع قِطّها العاشق) لعدم وجود ساقَين لها.

«أنا في أَشَدِّ الحاجة لساقَين تشبهان ساقَي لولي».

لو ترك وروده لظلَّت تقضي السَّاعات تنتف بتلاتها (بتلة بتلة) ثُمَّ تُمزِّق كُلَّ بتلة لقطع صغيرة، تضع بين غلافَي كُلِّ رواية حُبّ أعجبتها قطعة منها تحمل رائحته، تُوزِّعه في عالمها، ليصير الرَّجل الحَقيقيّ الوحيد الجدير ببطولة جميع هذه الرِّوايات.. رجلها الذي أحبَّته اليوم بكُلِّ كيانها مع ذلك غادر دون أن يشعر بُحبِّها!

ليس أصعب على القلب المكلوم من صوت نورس وحيد يخترق سماء منتصف الليل. صاح الطَّائر عازفًا نغمة الكلارنيت الحزينة، فانسابت دموع صُوفيًّا.

نسمة عبير حنون طافت بوجهها الدَّامع، اخترقت منافذه إلى صدرها، ربتت على قلبها السَّاخن فلطَّفته، ثقلت عينا صُوفيًّا، لم تستطيعا متابعة رواية «هذا الشَّيء ثمنه مليون جنيه» وهي تسقط من يدها، غامت صورة القِطَّة البيضاء، ونامت على كُرسيِّها في ركنها الأنيس.

راحت في نوم تسبح فيه من غير حركة.. تطير بقصور ذاتيٍّ! ثُمَّ سقطت في مُربَّع أنوار مُلوَّنة.. ورأته.

رأت المُصوِّر يرتدي ملابس كاهن كنيسة ويمشي على زجاج أصفر.. لا يصطحب كاميرته، بل يقبض على قلم رصاص كبير يسوق به عشرات من قطع السِّحاب البيضاء والسَّوداء مُتَّجهًا ناحيتها وهي تجلس على الزُّجاج كسيحة، مرتكزة على كفَّيها.. كم هو جميل! تجتاحها السُّحب.. تتمزق حولها.. ويمرّ المُصوِّر في هيئته الغريبة دون أن يراها.. تهمس بخجل فيخرج صوتها مائسًا: «تعال».

يموء القِطُّ على الدَّرجة الأخيرة من السُّلَّم فتلتقط صُوفيًّا روحَها وتستيقظ، مع ذلك خُيِّل لها أنَّها ما زالت تواصل الحلم؛ رأت القِطَّة تقفز إلى وليفها ويختفيا هابطَين الدَّرجات.. لكنَّها تُعلِّق عينَيها بالسُّلَّم، فالكاهن سمع نداءها، وقد أطلق سراح سحبه لتطير إلى السَّماء، وها هو يصعد الدَّرجات قادمًا إليها، يحمل كاميرا.

انتبهت إلى يقظتها بأذان الفجر!

التقطت الرِّواية السَّاقطة على أرض السَّطح وحرَّكت كرسيَّها بين نواطير أطباق استقبال البثّ التِّلفزيونيّ. صدرها منشرح بحلمها الذي إن دَلَّ على شيء دَلَّ على أنَّها صارت عاشقة!

«لأ. حبيبة».

«ولا حتَّى حبيبة! أنتِ مُحبَّة فقط!».

«ولو. أُحبُّ أحدَهم أفضل من ألَّا أُحبُّ.. يكفيني الشُّعور بأنَّ في حياتي رجلًا يمكنني أن أناديه بيني وبين نفسي بـ: يا حبيبي؛ الله! يا حبيبي. حبيبي. حبيبي».

دخلت حجرتها تبكي فرحًا.

«لأ. أنا حزينة جِدًّا الآن. أريد رؤيته ويمنعني انعدام ساقَي.. أنا أبكي حزنًا».

استلقت على سريرها.. سمعت دقَّات جرس الكنيسة.. نظرت إلى المسيح المضيء بالأشعة المُنسلَّة من المصباح الكهربيّ وهمست:

ـ أشكرك على هَديَّة اليوم.

بينما تنغلق عيناها للنَّوم فكَّرت في أنَّ الكُتَّاب ليس في كُلِّ مَرَّة يُشرِّحون أبطال رواياتهم بشكل صحيح، فالمُصوِّرون ليسوا كما وصفتهم ريهام.. لقد رأت اليوم واحدًا منهم، وهو يستحقّ أن تُحبَّه، بل تعشقه. كان لطيفًا، وورده...

ثُمَّ رأت المُصوِّر يخطو إليها مبتسمًا.. يقدم لها إحدى صوره.. يقول:

ـ هذان يناسبانك جِدًّا.

الصُّورة عبارة عن لقطة بارعة لساقَين أنثويَّتين عاريتَين خارقتَين الجمال. همست بشغف:

ـ الله!

ثُمَّ رأت كاهن الكنيسة يخطو إليها أيضًا (كان له جناحان هذه المرَّة).. رفع أحدهما وربت على كتفها.. كلَّمها بنبرة مُحذِّرة: «إذا نبتت لكِ ساقان ستصبحين فتاة عاديَّة.. العاديَّات يملأن الكرة الأرضيَّة.. أنتِ مختلفة لأنَّك بلا ساقَين.. أنظري إلى قلمي.. إنَّه بطول عصا راعي غنم. أعددته من أجل كتابة قِصَّتك المختلفة.....».

راحت صُوفيًّا في النوم فيما تدفَّق دمها (هادرًا داخل عروقه) إلى أسفل حوضها لينفذ تعليمات عقلها بضرورة إنبات ساقَين لها، والتي لم يجد بُدًّا من إصدارها بعد كُلِّ ما جرى من أحداث هذا اليوم.

- 17 -

في صلاة الأحد التَّالي ذهبت مريم إلى الكنيسة وجلست على كرسيِّ الاعتراف.

هو نفسه ذات الكاهن الأربعينيّ صاحب العينَين النفَّاذتَين، الذي يبني (بسرعة) تصوُّراته الخاصَّة عن آثام صغيرة يرتكبها هؤلاء الرَّاغبون في الاعتراف قبل أن يُفاجأ بفداحة الخطيئة التي سقطوا فيها، والتي لا تتناسب مطلقًا مع وداعة جلوسهم خاضعين على كرسيِّ الاعتراف!

ها هي قاتلة أبيها تجلس أمامه، إنَّها خاطئة حتَّى وإن اغتصبها أبوها. ليس على المسيحيِّ الصَّالح ردَّ البغضاء إلى عدوِّه، فكيف الحال والعدو هو الأب! ثمَّ إنَّ هذه البنت صارخة الجمال جِدًّا، والإنسان البعيد عن يسوع مَطيَّة الشَّيطان، أبًا كان، أو أخًا، أو أيًّا من الذُّكور الحرام.

ـ ما اسمك؟

ـ مريم مكرم نعيم، طالبة في كلِّية السِّياسة والاقتصاد، كان أبي موظَّفًا كبيرًا في وزارة الخارجيَّة، ومؤمنًا صالحًا مواظبًا على الصَّلوات والأصوام، دائم الزِّيارة للكنائس حتَّى أصابه الشَّلل، كان يخاف عليّ فوق ما تتصوَّر، فرض عليّ شروطًا حياتيَّة قاسية لمجرد أنَّني بنت....

قاطعها بصوت منكسر وقد ابتسم بأسف:

ـ لم يزل أمامي الكثير كي أكون صالحًا للرُّؤية بعين يسوع، والتَّكلم

بلسان الرُّوح القدس؛ لقد أخطأت توقُّع اعترافك تمامًا، ليسامحني الرَّب يا مريم، أكملي.

«هل يكحِّل عينَيه!».

طقطقت حشرة الخنفساء المنزوية رعبًا داخل أقصى جُحر في قلبها. قالت: «طبعًا. عيناه مكحَّلتان بالفعل».

همست قائلة للقَسّ:

ـ هل يمكنني التَّكلُّم بصراحة؟

ـ الحَقُّ يا ابنتي إنَّ كرسي الاعتراف لا جدوى من الجلوس عليه لو لم تتكلَّمي بصراحة.

ـ لا أُحبُّ كلمة الاعتراف، تشعرني بأنَّني متَّهمة أجلس أمام محكمة، في حين لست أنا الجانية بقدر ما أنا المجنيُّ عليها.

البنت لا تجلس جلسة المنكسرات، ولا تتكلَّم بأصواتهنَّ الكئيبة، إنَّها مشدودة الظَّهر، مشرعة الرَّقبة، صدرها نافر، صوتها ماء ينساب رقيقًا ومع ذلك ينحر الصَّخر، خصلات شعرها تنساب فوق جبهتها إلى حاجبَيها مثل الماء!

ـ ضعي الطَّرحة جيِّدًا على رأسِك.

لوهلة بدت وكأنَّها لم تسمع شيئًا، ثم رفعت عينَيها ونظرت إليه، رأى تمرُّدًا أنثويًّا على وشك الانفجار، لكنَّها رفعت يدَيها وسحبت طرحتها إلى الأمام، حرَّكتها قليلًا، أرضت الاستعراض الإيمانيَّ للقَسّ، ولم تمنع تمامًا شلَّال الشَّعر الأسود من تدَفُّقه إلى جبينها.

طقطقت الخنفساء بصوت مرتعش كأنَّها تعاني زمهريرًا جليديًّا: «يُكحِّل عينَيه ويهتمّ بشعرِك!».

ـ أبونا. أنا آسفة. لكن عندي مشكلة عويصة مع الكهنة.

بوغت.. أكثر من مرَّة تفاجئه هذه البنت بانحرافات حادَّة بعيدة كُلّ البعد عن توقُّعاته! رسمت ملامح وجهه علامة استفهام كبيرة، ثمَّ أومأ برأسه يدفعها للاستمرار في الكلام.

تردَّدت في بهو الكنيسة شقشقات عصافير تتطاير بين جدرانها، تختلط بترانيم التَّناول، رجال ونساء منهمكون في مضغ لحم المسيح وشرب دمه، يأملون في أن يجري فيهم مجرى دماهم، تنبت لحومهم الجديدة من لحمه الذي لم تلوِّثه خطيَّة واحدة.

ـ لماذا لا يكشف كهنة الرَّب عن حقيقة الأمر لو لم يكن المانع هو احتقارهم للمرأة؟

ـ أيُّ أمر؟

ـ أمر زواجه.

ـ زواج من؟!

ـ زواج ربِّنا.

بهت.. تسمَّر.. تصخَّر؛ شقَّ الصَّفير الذي اخترق أذنَيه أكباد جميع الأصوات فصرعها.. وبينما يتقلَّب في دوَّامة هذه الانحرافة الإيمانيَّة الفاجرة (تقلُّب ورقة شجر في دوَّامة إعصار) فَكَّر في أنَّ حوَّاء الأولى لم تكن تستحقّ هذا الغضب الإلهيّ، إنَّها مجرَّد امرأة غارت من شجرة،

تَرَكَّزت قضيَّتها في إخضاع آدم لها، لا للشَّجرة، لكنَّها لم تنظر أبدًا للرَّب كما تنظر إليه هذه الـ..!

«الـ ماذا؟».

تراجع سريعًا عن سبِّها في سرِّه، فالقسسة المملوئين بروح الرَّبِّ لا يُدينون الخطاة مهما بلغت بشاعة خطيئاتهم.. القسسة يلتمسون الأعذار لمن تعرَّضوا للتَّجربة؛ عين الخاطئ ترى الإنسان خاطئًا، بينما عين الشَّبعان بالمسيح ترى الجاني مجنيًّا عليه.

ـ كيريااليسون! الله لا يتزوَّج.

ـ الله مَحبَّة.

ـ نعم. الله مَحبَّة، لكن ما علاقة مَحبَّة الله بالزَّواج يا ابنتي!

ـ الله غفران.

ـ نعم. ما علاقة غفران الله بالزَّواج!

ـ الله آب.

ـ ما العلاقة! ما العلاقة؟

ـ الله تضحية.

أشاح بذراعه، ودار برأسه بعيدًا عنها، وصمت.

تريده يفهم أنَّه إذا كان الإنسان لم يعرف المحبَّة إلَّا لأنَّ الله محبة، ولم يعرف الغفران إلَّا لأنَّ الله غفران، ولم يعرف البنوَّة إلَّا لأنَّ الله آب، ولم يعرف التَّضحية إلَّا لأنَّ الله ضحَّى بابنه الوحيد، فكذلك عرف الإنسان أنثاه لأنَّ الله عرف أنثاه من قبل.

لوحة الجحيم على جدار الكنيسة.. العراة يشويهم اللظى.. معظمهم نساءً! جئيرهنّ يقضّ مسامعه.. ثبتت عيناه على اللوحة، رأى مريم المهرطقة عارية بينهن لكنَّها لا تجأر مثلهنّ.. لا تتذلَّل مثلهنّ.. لا تتلوَّى مثلهنّ.. فقط ممدَّدة بجسد بَضٍّ مُتمرِّد، تقاوم الآلام بضحكة مملوءة غنجًا، تحاول إغواء ملائكة العذاب!

سرت في جسمه رعدة، إذ البنت العارية كانت غاية في الفتنة، والزَّاقد بين فخذَيه غافيًا لعقود (ساكنًا مثل ميِّت) ها هو يتململ. يتحرَّك.. يفتح عينه.. بل يحاول رفع رأسه ليرى البنت جَيِّدًا!

دون أن ينظر إليها قال:

ـ لا أصلح أب اعتراف لكِ.. ابحثي عن غيري.. وتأكَّدي أنَّ ما ذكرتيه من هرطقة لن يعرفه أحد.

ليته لم يقل لها هذا الكلام.. ليته واصل الاستماع إليها حتَّى النِّهاية ثُمَّ باركها ليمضي بعد ذلك كُلّ منهما إلى حال سبيله، والدَّينونة في النِّهاية لصاحب الدَّينونة؛ لو فعل لما سمعها تقول له ما قالته بصوت يرتدي كومبليزون فضَّاح، فيهوي قلبه العطشان إلى جوف عين ماء عذب (عمل عقودًا طويلة على ألَّا يقربه أبدًا).

ـ أنا ارتحت لكَ أنتَ.

ضغط على أسنانه من فرط الألم اللذيذ، الذي اختطف كلَّ خليَّة منه؛ لذَّة مفرطة كشفت له عن حقيقة كريهة؛ إنَّ اشتهاءه الشَّيطانيّ لم يزل حيًّا، وقد ظنَّ أنَّه مات على صليب الحرمان! ليكن، إنَّه يتَعرَّض

لتجربة جديدة من تجارب الشرِّير، ومهما حدث سيظل يشبح اشتهاءه على الصَّليب حتَّى يقتله تمامًا، وإلى أن يُتمَّ له الرَّبُّ عمله عليه اعتزال أَبويَّة الاعتراف؛ إنَّها مقام الذين يخشاهم الشَّيطان، بينما هو لم يزل بعد يخشى الشَّيطان.

أدار وجهه إليها فرأت الكحل يذوب باغروراق عينَيه..

همس:

ـ وأنا أكرهِك جِدًّا.

- 18 -

رغم أنَّ صُوفيًّا لم تكن تشعر بالرَّغبة في قراءة أيّ روايات هذه الليلة إلَّا أنَّها سحبت إحداها (كيفما اتَّفق) وخرجت إلى ركنها.. استَقرَّت فيه. ونظرت إلى الغلاف، قرأت العنوان: «عُشٌّ مهيَّأ للحُبِّ». فَرَّت أوراقها بمزاج عكر، أغلقتها، وحشرتها بين جسمها ومسند ذراعها الأيسر.

القمر يُشرق بدرًا نحاسيًّا، كرة كبيرة تضطرم بضوئها الذَّهبيّ، توشك على الانفجار. تُحبّ القمر عندما يكون كرة صغيرة تشعّ لون الصَّفاء بقوَّة، تُحلِّق في كبد السَّماء مزهوَّة ببياضها.

ـ نينة.. أنا مُستعدَّة.

ـ حاضر.

تطلب السيِّدة مريم مكرم نعيم منه (على استحياء) التَّفضُّل بالدُّخول.

رغم حِنْية ظهره الخفيفة بدا ممشوق القوام، ذو وجه مريح يعكس قلبًا صافيًا، يُعلِّق الكاميرا بكتفه، ويمسك باقة الورد.

فتح فمه ليحيِّيها، مع ذلك لم يفعل!

هل ارتبك؟

ممكن.

تعرف صُوفيًّا سحر جمالها.. إنَّه مُربك.. لقد تيبَّس مكانه كتمثال رومانيٍّ، ينظر في عينَيها الواسعتَين مشدوهًا، حتَّى أنَّه نسي تقديم باقة

وروده لها!

السيِّدة مريم مكرم نعيم تشير بكَفٍّ يدها إلى كرسيٍّ بلاستيكيٍّ صغير:

ـ تفضَّل اجلس.

أخيرًا يستفيق من سحر عينَيها.. يهزّ رأسه معتذرًا:

ـ ليس هناك داع.

يُقدِّم لها باقة الورد.

في هذه اللحظة انحدرت دمعتان من عينَيها، وبينما تتدحرجان على صدغَيها التمعت فيهما آشعَّة القمر النُّحاسيّ.

«مئات الرِّوايات قدَّم فيها الرِّجال الخياليُّون ورودًا لحبيباتهنّ، مع ذلك لم يستطع كاتب واحد وصف أحاسيس لحظة انتقال الورد بين يدَي حبيبَين كما شعرتُ بها في الواقع».

أصابع يدها لمست أصابع يده دون قصد، قبل أن تسارع بإبعادها سمعت أناملها تهمس لأنامله بنبرة لائمة: «لماذا تقطفين الورود الجميلة؟ ألا تعرفين أنَّكِ تقتلينها؟».

وسمعت الإجابة: «أغلى أمنيات الوردة أن تموت بين أنامل عاشق، فما بالك لو كانت هذه الأنامل أناملك؟».

«أمنية الورود الموت بين أنامل العُشَّاق».

كانت تتشوَّق لأن تهمس له: .

ـ اسمَك إيه؟

صوتها حالم؛ ينسلّ من حنجرتها مرتبكًا مثل يمامة تستغرب

الزِّحام، يشعر برغبة عارمة في ضمِّها إلى حضنه ليهدِّئ من روعها.

ـ اسمي هارون.

القمر النُّحاسيُّ يقفز إلى كبد السَّماء، يصير كرة بيضاء مُحلِّقة بعنفوان.

سحبت صُوفيَّا رواية «عُشٌّ مهيَّأ للحُبِّ» من بين جسمها ومسند ذراع كرسيِّها.. تحضّن نفسها على بدء القراءة.. قصص الحُبّ (داخل الرِّوايات) صارت فاترة، ليست ملتهبة مثل قصَّة حبِّها! كما أنَّ حبيبًا فيها لم تُقدِّم أنامله تبريرًا رقيقًا لقطف الورود كما قدَّمته أنامل حبيبها. «هارون».

كادت تسمع دقَّات قلبه وهو يهمس مستئذنًا:

ـ أريد الاحتفاظ بصورة لكِ.. هل تسمحين؟

انكسرت عيناها خجلًا.. طأطأت رأسها لثوان وأومأت له موافقة. لم يكن بإمكانها الممانعة، فهذه الصُّورة ستكون بلسمه الوحيد الذي يستعين به على عذابات الحنين والشَّوق، وهي ليست قاسية القلب كي ترفض منحه هذا البلسم، كما أنَّها فرصة طيِّبة لرَدّ لفتة الورد الجميلة بلفتة أجمل!

بطلات الرِّوايات غالبًا ما يتعاملن في مثل هذه المواقف بالـ شياكة نفسها!

أزَّت الكاميرا قبل أن يصدر عنها صوت تكَّة التقاط الصُّورة.. باقة الورد ليست على الجدار تتشبَّث به حتَّى لا تقذف بها الرِّيح إلى هوَّة الفراغ المميت.. لا.. هذه المرَّة تستكين بوداعة بين ثديَين صغيرَين، مطمئنة لبقائها فوَّاحة بعطورها (أطول وقت) لهذه الحبيبة رائعة الجمال!

تهدَّج صوته:

ـ أتمنَّى لو استطعت البقاء معك لفترة أطول، لكن أحبُّ ألَّا أكون سمجًا فأتسبَّب في إجهادِك.. هل تسمحين لي بالذِّهاب؟

لم تجبه.

تمنَّت لو لا يغادر بهذه السُّرعة، لكن مريم همست:

ـ تفَضَّل.. مُتشكِّرة جدًّا لحضرتك.

وبينما يستدير مُوليًا ظهره إلى صُوفيًّا (ليخرج من الغرفة) قفز قلبها إثر فرحة مفاجئة؛ لقد لمحته يخطف نظرة إلى ساقَيها اللتَين تعَمَّدت وضعهما في سروال مفرط الضِّيق.. ساقاها سحرتاه. الآن فقط صارت امرأة حقيقيَّة.

«المرأة ساقان يا لولي».

طائر أسود اخترق السَّماء في هذه اللحظة! لم تره صُوفيًّا يعبر فوق ركنها من قبل؛ نعق وهو يقطع الفضاء بمحاذاة البحر! حتَّى القطَّة استغربته ففتحت عينَيها على اتِّساعهما، وشرعت أذنَيها تتابع طيرانه حتَّى غرق في لجَّة العتمة.

ارتجَّ جسد صُوفيًّا!

تبكي، تتَلوَّى، مثل من يجاهد لإفراغ بطنه (فيرتاح من أوجاعه) تجاهد لاستفراغ دموعها التي تصُبّ في داخلها، وتطمس صدرها بالملح الكاوي.

«لماذا لم أترك الأمور تجري على هذا المنوال؟ لماذا رفضت استقباله؟!».

«أكرهك يا ريهام. أكرهك».

- 19 -

وقف القطار في محطّة مصر.. آخر السِّكَّة.. نزل الرُّكَّاب بحمولهم المُتنوِّعة بين القفف المُعبَّأة بخيرات الصَّعيد من خبز وفصوص هايش ورقاق وجبن قريش، وبين أقفاص تتصايح فيها دواجن الطُّيور، وبين جرار الجبن القديم، وبين حاويات الملابس من لفائف وحقائب.. أمَّا السِّتّ صُوفيَّا فنزلت تحمل مريم المُحطَّمة.. ونظرت حولها رأت نور الشَّمس مُلطَّع على الجدران. نظرت فوقها لم تجد الشَّمس، ووجدت سماءً كابية كالحة مترسة بالغبار.. نور الشَّمس نور المغارب.. والمَحطَّة زحام يوم القيامة.. مشت مع الماشين فإذا بها في ميدان باب الحديد. تمثال رمسيس العملاق.. أتومبيلات (لا تحصى ولا تعدّ) تزحف في شارع أوسع من بحر النِّيل!

انقبض قلبها.. وفكَّرت في أنَّها مُقبلة على تعاسة كبرى ستهصر فؤادها هصرة الموت لا محالة؛ إذا كانت قرية صغيرة (بحقول خضراء وبيوت طينية) قد دَمَّرت حياتها الآمنة، فكيف بهذه المتاهة السَّاحقة التي يتوسَّطها أحد المساخيط العمالقة!

فكَّرت في أن لو كانت المصيبة انتفخت في قلبها وانفجرت وقتلتها لكان ذلك أفضل جِدًّا؛ لكن يد الله تتدخَّل عمدًا حين تشتدّ المصائب وتوعر؛ يد الله لا تفعل ذلك لترحم الإنسان، لو ترحمه تنهي عذاباته تمامًا؛ لكن الآب يهب النَّاس الإنقاذ لا لشيء غير إطالة عذاباتهم. ثُمَّ

ها قد اتَّضح لها أنَّ الآب لا يُفرِّق بين بيوت الظَّلمة وبيوت المظاليم، ولا بين الصَّالحين والطَّالحين؛ العذاب للجميع.

«أنا السِّتّ صُوفيَّا امرأة صالحة، وزوجة كاهن، مع ذلك أجرى عليَّ عذابًا قد لا يجريه على مهرطق محروم».

في قلب دوَّامة حيرتها، وعيناها مُعلَّقتان بوجه المسخوط العملاق رمسيس، بينما تُسلِّم نفسها لليأس المميت، نظر أحدُهم إليها فوجدها امرأة ريفيَّة (غالبًا من الصَّعيد) وجهها يحمل صلابة نسائه وحياءهن. تجلس على حافَّة التّلتوار المقابل لمحطَّة السِّكَّة الحديد وتضع في حجرها بنتًا مريضة متهالكة مُشوَّهة.

صعب عليه حالها، فاقترب منها، ومَدَّ يده إليها بمال، فقالت له:

ـ أنا معي فلوس، ومعي بنت غلبانة، وليس معي بيت أو دار نثَّاوى فيه.

الرَّجل الشَّهم قال لها:

ـ تعالي معي يا سِت.

وجدت نفسها في حافلة كبيرة تعُجّ بالبشر، تقطع شوارع طويلة تعُجّ بالبشر، على جانبَيها انتظمت عمارات شاهقة الارتفاع تعُجّ بالبشر، وقلبها في جميع ذلك يعُجّ بالقلق والخوف، يتوَرَّم خلف ضلوعها، ولا تُصدِّق أنَّها مستيقظة تعيش واقعًا غريبًا، بل هي نائمة تتنَقَّل بين كوابيس، كُلّ كابوس أنقح من غيره. ومع كُلّ كابوس تسمع مريم أُمَّها تهمس:

ـ كيريااليسون.

بالأخير نزلت صُوفيَّا من الحافلة خلف الرَّجل الشَّهم، وسارت

خلفه تقطع شوارع وحواري ضيِّقة طويلة، تفوح من شبابيك وأبواب البيوت أبخرة أصناف الطَّبيخ لتختلط بأبخرة مياه مجاري راكدة في مساحات واسعة من الممشى. مريم على كتفها تنظر (بعينها السَّليمة) إلى مناظر جديدة عجيبة، لكنَّها غير مخيفة (ولا مؤلمة) مثل منظر الحديقة الخلفيَّة المحيطة بجبل جلجثة وصليبه المريع، حيث شجر التِّين يتراقص في قلب الليل كالعفاريت، فيضاف إلى آلام جسمها المصلوب رعب روحها.

في آخر حارة سد فتح الرَّجل الشَّهم باب غرفة صغيرة في بير السُّلَّم (كانت منور البيت قبل استغلالها كغرفة معيشة). عرفت أنَّ المكان اسمه البساتين. وأنَّ الضَّجيج الذي يخترق أذنَيها صادر عن ورشة حدادة ملاصقة للبيت.

الرَّجل الشَّهم قال لها إنَّ اسمه الحاج هارون، وأشار لها نحو ماكينة خياطة عتيقة في ركن من الغرفة، وقال:

ـ كلي عيش بها وأكلي بنتك.

ونظر في الصَّغيرة مريم نظرة منبعجة مشفقة، وقال:

ـ البنت مُكسَّرة!

فقالت السِّتّ صُوفيَّا:

ـ طلع عليها ضبع في بلدنا كسَّرها؛ وقالوا لنا علاجها في مصر.

- 20 -

سور السَّطح موحش بدون إقعاء القِطَّة البيضاء عليه؛ وهدير البحر أشدّ وحشة.

«عُشٌّ مهيَّأ للحُبّ» رواية ملعونة، ثلاث ليال متواليات تصطحبها صُوفيًّا إلى ركنها كي تقرأها مع ذلك لا تفعل، فما أن تفتح غلافها حتَّى تسمو عيناها عن أوراقها لتصافح السَّماء، تسرح مُفكِّرة في هذا المُصوِّر الذي كسر قلبها بالحُبِّ، فانكسرت شراهة اشتهائها لقراءة الرِّوايات بسببه.

لكن (في هذه الليلة الثَّالثة) فوجئت بما لم تتخيَّل إمكانيَّة حدوثه. إذ بينما تمتطي فرس أوهامها (تركض به خلف الطَّيف المراوغ لحبيبها) إذا بصوت خافت يعرقل فرسها الواهي فيفقده التَّوازن، ليسقط مُتقلِّبًا بين آكام الفراغ، ولتهوى صُوفيًّا من حالق خيالها إلى أرضه الوعرة.

ـ مساء الخير آنسة صُوفيًّا.

الشَّارع يغفو، يلفُّه هدوء ثقيل، تقطعه (على فترات متباعدة) سيَّارات مسرعة.. وشيش الموج في تمام عنفوانه. لسعة برد خفيفة تصاحب نسائم اليود.. الأجواء المعتادة للسَّاعة الثَّانية بعد منتصف الليل.

مع أنَّ صوته يهمس كنغمات فلوت يراقص كمنجة في ضوء قمر مكتمل إلَّا أنَّها جزعت، فقد أرعبتها فكرة داهمتها مع سماع هذا

الصَّوت المُتيَّمة بصاحبه:

«هل صارت مهووسة به حتَّى الهلوسة!؟»

ـ مساء الخير آنسة صُوفيًّا.

نظرت إليه.. إنَّها مهووسة به فعلًا لكنَّها لا تهلوس؛ فها هو بلحمه وشحمه يقف عند زاوية السُّلم وقد استكانت القطَّة البيضاء على صدره، يحيطها بذراعَيه، مرتبك، على وجهه ابتسامة خجلى.

«ما الذي أتى به في هذا الوقت غير المناسب نهائيًّا؟ ولماذا لا يصطحب باقة ورد؟!».

لم ترد تحيَّته. لكنَّها شعرت برغبة مُلحَّة في الوقوف على ساقَيها والجري نحوه والاندساس في حضنه، لكنَّها تخاف؛ تخاف منه تحديدًا.. أن يُفسِّر ردَّ فعلها الحميم تفسيرًا خاطئًا، فكيف لبنت محترمة أن تستلقي على صدر شابٍّ (حتَّى لو كان حبيبها) على سطوح بعيدة عن الأنظار في ساعة بعيدة من الليل؟ هي نفسها لا تستوعب هذا التَّصرُّف، فكيف به هو؟

ـ مساء الخير آنسة صُوفيًّا.

«شابٌّ غير محترم. يبدو أنَّ كلام ريهام عن المصوِّرين كلام صحيح! لماذا يزورني في هذا الوقت المُتأخِّر من الليل وهو يعلم أنِّي بنت وحيدة؟! لو كان محترمًا لزارني في النَّهار. لزارني في المغرب. في أوَّل الليل. لكن الآن! هل أغرته ساقاي الجميلتان بالتَّفكير فيّ بشكل خاطئ؟ على رأي لولي! الرِّجال شهوانيُّون فعلًا؛ أنا أحبُّه وهو يُحبّ ساقَيّ!».

عليها إرسال رسالة فَوريَّة له ذات محتوى واضح جدًّا:

إنَّها وإن كانت جميلة؛ وإن كانت بنتًا لها ساقان ملفوفتان بأنثويَّة مغوية؛ إلَّا أنَّها تحترم نفسها، وتقرأ الرِّوايات، وتفكِّر بعقلها لا بجسمها، ولا تحترم من يُفكِّرون بشهوانيَّة.

قرَّرت ألَّا ترد تَحيَّته.. وكانت هذه رسالتها الصَّامتة له.

بلحظ عينها اليمني التقطت ملامح وجهه وقد تقاطعت مبرزة الحزن بديلًا عن الخجل والارتباك، كما تدلَّى ذراعاه مُحرِّرا القطَّة البيضاء لتقفز إلى الأرض وتتحرَّك ببطء إلى مكانها المُفضَّل من حافَّة السُّور.

«الرِّسالة وصلته».

الرَّسائل يرسلها الجميع، وتصل إلى الجميع، ولا يفهمها إلَّا القليلون، ولا يتفاعل معها على الوجه الأمثل إلَّا النُّبلاء.

كان طبيعيًّا أن يستدير هارون (مُنكَّسًا رأسه) ليغادر دون التَّفوُّه بكلمة واحدة؛ وأن تنفجر صُوفيًّا في بكاء فوَّار يرجّ جسمها، فتنزلق «عُشٌّ مُهيَّأ للحُبِّ» وتسقط تحت عجلات كرسيِّها.

كم سنة تواظب على قراءة الرِّوايات؟

سنون طويلة.

كم سنة تقرأ قصص الحُبّ؟

سنون طويلة.

لكنَّها تشعر (في هذه اللحظة) وكأنَّها لم تقرأ رواية واحدة، ولا اطَّلعت على قِصَّة حُبٍّ واحدة! ومن لا يتعلَّم من القراءة لا يقرأ على الحقيقة.

كان عليها ألَّا تسقط في نفس الجُبِّ الذي هوت معظم قصص الحُبِّ إلى قاعه الغائر! كان عليها تحاشي هذا الخطأ الشَّائع الذي أودى بالكثير من قلوب العشَّاق، هذا الخطأ الذي وجَّهت اللوم بسببه إلى الذين ارتكبوه من أبطال الرِّوايات، ثُمَّ ها هي ترتكبه بمنتهى الحماقة: «إرسال الرَّسائل الصَّامتة».

الرَّسائل الصَّامتة خطأ فادح، لأنَّها (وإن كانت صامتة) تثرثر بأكثر مِمَّا هو مطلوب الإفصاح عنه.. بل ربما تفصح بعكس المطلوب منها توضيحه!

هي متأكِّدة من أنَّها لم ترسل له رسالتها الصَّامتة ليستدير موليًا ظهره إليها ثُمَّ يغادرها؛ لم تُفكِّر (للحظة واحدة) في تضمين رسالتها بهذا الطَّلب القاسي.

القطة منكمشة فوق حافَّة السُّور، يُرقِّص هواء البحر أطراف شعرها الأبيض رقصة بطيئة، تنظر إلى صُوفيًّا بعينين لائمتَين، وعينا صُوفيًّا تُسرِّبان الدُّموع بينما تُفكِّر في أنَّها قاسية القلب، وأنَّ كتَّاب الرِّوايات مظلومين، ليس لهم ذنب في تحديد مصائر أبطال رواياتهم، وأنَّهم ليسوا مسؤولين عن تلك النِّهايات المفجعة، فشخصيَّات رواياتهم تختار (طواعية) طريق البؤس كما اختارته هي قبل لحظات قليلة، تُرسِل الرَّسائل الصَّامتة (بإراداتها المحضة) في وقت كان يمكنها جِدًّا الكلام بما تريد توضيحه.

ـ مساء الخير آنسة صُوفيًّا.

انتفضت.. صوَّبت ناظريها تجاه صوته الحنون. المرتبك.. الخجول؛ إنَّه هو مرَّة أخرى! يقف في نفس المكان! (على رأس السُّلم).

هل عاد ثانية أم أنَّه وهم يُصوِّره ندمها!؟

يقف محتضنًا القطَّة البيضاء وقد استكانت على صدره الواسع!

أدارت رأسها نحو مكان القطَّة من حافَّة السور؛ كانت هناك!

لن تُضيِّع الوقت في التَّفكير. يكفيها أنَّ ما يحدث رائع (حقيقةً كان أم وهمًا) خرج صوتها مُحشرجًا:

ـ مساء الخير.

موجة كبيرة من السَّعادة أطاحت بارتباكه وخجله.. دلَّى ذراعيه فقفزت القطَّة إلى الأرض، وتحرَّك نحوها خطوتَين:

ـ أنا آسف جِدًّا على مجيئي في هذا الوقت، لكن..

صمت.

«لكن ماذا؟!».

واصل صمته لدقيقة أخرى، وواصل تقدُّمه نحوها خطوة أخرى، قبل أن يقول:

ـ الوقت متأخِّر فعلًا، لكن..

صمت مَرَّة أخرى!

«قل؛ لكن ماذا؟!».

إنَّها لا تَتكلَّم.. لا تفتح فمها حتَّى بكلمة واحدة، رغم ذلك فرحتها بوجوده لا تخفى عليه، فتشجَّع، وتقدَّم بضع خطوات أخرى ليمثل بين يدَيها؛ لم تعد هناك أيُّ مسافات فاصلة بينهما. همس:

ـ أنا.. أنا..

طأطأت رأسها وهي تهمس:

ـ أنت راعي السُّحب.

ـ راعي السُّحب!؟

ـ رأيتك في الحلم ترعى السُّحب بقلم رصاص في طول عصا.

ابتسم ابتسامة واسعة مندهشة، وانحنى ملتقطًا رواية «عُشٌّ مهيَّأ للحُبّ» من بين عجلات الكرسيّ. لم يحاول تقليب أوراقها، أو حتَّى النَّظر إلى غلافها. فقط مدَّ يده بها إلى صُوفيًّا وهو يقول:

ـ راعي سحب؟! ليس هناك رعاة سحب.. هناك رعاة أغنام.. رعاة بقر.. رعاة أيّ شيء غير السُّحب!

رفعت كتفَيها وقلبت شفتَيها كأنَّها تقول: «هذا ما حدث».

أضفت حركتها التِّلقائيَّة أجواءً حميميَّة حولهما، فاستدار مواجهًا البحر. اتَّكأ بكوعَيه على حافَّة السُّور فأخفى القطَّة المَقعيَّة عن ناظرَي صُوفيًّا.. همس بينما يرقب خطوط الموج البيضاء المتواترة بلا انقطاع:

ـ مشهد خلَّاب. لماذا لا تقفين وتشاهدينه معي؟

ساقاها ملفوفتان بالأنوثة الطَّاغية، مدملكتان وقويَّتان، لكنَّهما ما زالتا جديدتَين، بالكاد اكتمل نموُّهما صباح اليوم؛ لم تُرد استعمالهما في الحركة قبل التَّأكُّد من قدرتهما على ذلك، ورأت أنَّ هذا الوقت هو الأنسب لتجربتهما.. في قلب الليل.. وبمساعدة حبيبها.

مَدَّت قدمَيها تضعهما على الأرض.. رفعت يديَها فأمسك بهما يساعدها على القيام. قلبها يتَخبَّط بين ضلوعها.. طائرا نورس يَشقَّان السَّماء يعزفان الكلارنيت.. تتحامل على ذراعَيه القويَّين.. تقف. تصُكّ نسمات اليود وجهها.. تضع ذراعَيها على حافَّة السُّور وترى

البحر بالرَّاحة. سمعت هارون يقول:

ـ البحر رائع.. لكنَّه لا يمنح فُرصًا.

لم تُعلِّق. سعادتها الليلة أكبر من أن تكون حَقيقيَّة!

هل سقطت ضحيَّة الهلاوس!؟

فمن غير المعقول أن تبقى، على طول السِّنين الفائتة، تتجرَّع صنوف الحرمان ليُقرِّر القدر (فجأة) منحها جميع صنوف السَّعادة دفعة واحدة. في ليلة واحدة.. في ساعة واحدة!

«لم يفعلها القدر من قبل، فلماذا يفعلها الآن!؟».

السَّاقان هما العالم.. ما أن ارتفع جسمها بهما حتَّى تمكَّنت من رؤية البحر كاملًا، وبتأن.. تستطيع الآن الذِّهاب إليه وحدها.

السَّاقان حكمة.. كشفا لها حالًا عن حقيقة لم يناقشها أيُّ كاتب في أيِّ رواية قرأتها: إنَّ العالم ليس ما يراه الإنسان.. ولا ما يسمعه.. ولا ما يقرؤه.. بل ما يصل إليه بساقَيه!

«السَّاقان هما العالم».

تَحوَّلت عن البحر إلى هارون؛ تدرك أنَّها مصابة بصدمة لذيذة لذلك لا تريد التَّخلُّص منها بالتَّفلسف واستخلاص العبر.

قال:

ـ الوقت مُتأخِّر فعلًا. لكنَّه الوقت المناسب لأن أقول لكِ....

وصمت!

ثُمَّ استدرك مُغيِّرًا اتِّجاه كلامه:

ـ أعرف أنَّك تبقين مستيقظة طول الليل لقراءة الرِّوايات.

ـ ماذا تريد أن تقول لي؟

ـ أريد قول إنِّني..

تقف على يساره.. تسمع دقَّات قلبه بوضوح.. وجيبها نقيٌّ مهما شوَّش عليها وشيش الأمواج.. كلُّ دقَّة تهمس: أحبُّك يا صُوفيَّا.. أحبُّك يا صُوفيَّا.. أحبُّك يا صُوفيَّا.. أحبُّك يا صُوفيَّا.

ستغفر له جبروت لسانه المُتكبِّر لأجل رقَّة قلبه الملتاع. يبدو أنَّ رعاة السُّحب لا يجيدون نطق كلام الحُبّ، مع ذلك فإنَّ المزيد من عواصف الحُبّ يزيد خجلهم.

نظرت في عينَيه وقالت:

ـ أنا بنت محترمة جدًّا.. لست مغرمة بإقامة علاقات حُبّ مع شُبَّان. ويمكنني طردك الآن.. هل تفهم ذلك؟

ـ أفهم طبعًا.. لكن أنا أيضًا شابٌّ محترم جدًّا ولست مغرمًا بإقامة علاقات حُبٍّ مع البنات.. ويمكنني المغادرة دون طرد.. تكفي مُجرَّد رسالة صامتة تنطق بها عيناكِ لأستدير عائدًا إلى من حيث جئت.

همست:

ـ هارون.

صعقته نشوة سماع اسمه منسابًا من بين شفتَيها، فرفع وجهه إلى السَّماء ودار حول نفسه دورة كاملة متشنِّجًا كأنَّ به مَسَّ كهرباء، بينما القطَّة تراقبه بعينَين محملقتَين تشعَّان وميضًا أخضر. همس:

ـ لأوَّل مرَّة أسمع اسمي؛ إنَّه نغمة تصدر عن فلوت يراقص كمنجة في ضوء قمر يتلألأ مكتملًا.

ألقت نفسها في حضنه، فغطَّاها بصدره الرَّحب. همست:

ـ حبيبي. أنا حاسَّة اسمك كذا فعلًا.

انخطف روحُه.. فرَّ من جسمه مُحلِّقًا خلف طائرَي النَّورس.. دار في السَّماء دورة قبل أن يعود إليه ليجد جسمه ملقى على الكرسيِّ يجلس مأخوذًا، وصُوفيًّا منكفئة عليه تُقبِّله قبلة مسعورة.

شفتا الحبيب حبَّتا كرز، لا يرُدَّان غائلة جوع العاشق، لكن لا مفر من أكلهما.

لم تعد شفتا صُوفيًّا تُقبِّلان، بل أسنانها. انتزعت شفتَي هارون بقضمة واحدة هائلة، قبل أن ترتَدّ للخلف وتلوكهما بلذَّة.

سمعت مواء القِطّ.. رأت القِطَّة تقفز مُتَّجهة إليه، ثُمَّ يهبطان درجات السُّلم. ابتسمت بعينين دامعتَين، فأخيرًا أخيرًا (في فجر هذا اليوم الجديد) لن تذهب بمفردها إلى وكر وحدتها، بل ستذهب إلى عُشِّها المُهيَّأ للحُبِّ مع وليف حقيقيّ يرعى قلبها الأبيض كما يرعى السُّحب.

تحَسَّس مكان شفتيه المنتزعتَين فيما ينظر مذهولًا إلى أنامل أصابعه وقد صارت طلائع ورد أحمر بدفء دمه.. همس بأعصاب محلولة:

ـ هل ودَّعتُ العالم ودخلتُ الجنَّة!

غمرتها الرَّاحة. ها هو سعيد لأنَّها قضمت شفتَيه.. هكذا ومهما أكلت من جسمه سيكون سعيدًا.. ستأكل منه لأنَّها تُحبُّه جِدًّا.. ستأكل منه لأنَّها تريده يجري في دمها.. يأكلون المسيح في الكنيسة لأنَّهم يُحبُّونه جِدًّا. لكن هارون ليس المسيح (جسم هارون يفنى مع كثرة التَّناول) لذلك ستحرص على أن تُبقي منه ما يجعله قادرًا على

احتوائها، ولتعيش الحُبَّ معه حتَّى آخر قطرة من دمه.

تخطو إلى غرفتها.. هارون يجلس في الكرسيِّ المُتحرِّك وهو يضع أصابعه على شفتَيه النضَّاختَين بالدِّماء، و«عُشٌّ مُهيَّأ للحُبِّ» ملقاة على الأرض تُرقِّص أوراقها هبَّات رياح البحر، وتتبقع بقطرات دم.

وقفت صُوفيَّا عند الباب.. نظرت إلى هارون وابتسمت.. وماس صوتها وهي تناديه:

ـ تعال.

- 21 -

شقَّت قهقهة مريم المرآة طبلتَي أذنَي السيِّدة مريم مكرم نعيم الممدَّدة في فراشها تسترجع كعادتها (كُلّ ليلة) مشاهد حياتها، فوضعت كفَّيها على أذنَيها وهي ترمق هذه المجنونة الزُّجاجيَّة؛ صوت قهقهاتها الحاد (كصرير الصَّراصير) يمكنه إيقاظ النَّائمين في هذا الوقت المتأخِّر من الليل.

قطعت قهقهاتها ونظرت في عينَي السيِّدة مريم الخائفتَين، ثمَّ رفعت سبَّابتها وصوَّبتها نحو وجهها البائس.. قالت لها: «أنتِ لست طيِّبة كما تبدين للنَّاس.. أنتِ حيَّة ملساء، وداهية.. وضعتِ القَسَّ هارون في رأسك فأهلكتِه بسهولة!».

ـ أنا لم أهلكه. أنا أحببته. لكنَّه لم يحب نفسه.

لأسبوع كامل كانت الكلمة الأخيرة (التي تفوَّه بها القسُّ قبل أن يهبَّ واقفًا كالملدوغ ويتركها وحيدة على كُرسيِّ الاعتراف) تتَردَّد بقوَّة داخل عقلها.. وبأقوى من ذلك ظلَّت تتماوج كلمته لها داخل قلبها: وأنا أكرهك.. وأنا أكرهك.. وأنا أكرهك.

لم تفهم لماذا قالها بهذه النَّبرة المنكسرة! لم تكن نبرة قَسٍّ خاب أمله في أحد رعايا الكنيسة.. ولا حتَّى نبرة رجل التقاها لمرَّتَين فقط. بل كأنَّها نبرة حبيب صُدِم في حبيبه، فقرَّر هجره! مع ذلك يُصرّ (قبل الرَّحيل) على قول كلمة ذات خطاطيف تشبه الهلب، يُلقي بها في عمق

وجدان حبيبه لينشب في جدران قلبه، فيبقى حاضرًا مهما ابتعد!

لماذا تَكلَّم بهذه النَّبرة وهو ليس حبيبها، وهي ليست حبيبته؟!

هي لم تتَعدَّ حدودها كأنثى مَسيحيَّة تكاشفه (بصراحة شديدة) بمشكلتها الإيمانيَّة الكبرى.. لم تخرج عن هذا الإطار قيد أنملة.

«إيَّاكِ والاستعباط يا هانم! لقد تعَمَّدتِ قول الكلمة إيَّاها بطريقة تهدّ الجبل نفسه لو كان رجلًا! أنا ارتحت لك أنتَ.. صَيَّادة.. أعددتِ الشَّص بمهارة.. قلتِها بنبرة جادَّة لكنَّكِ ضمَّختِها بعطر عاطفيٍّ يُسكر أنوف الرِّجال: أنا ارتحت لك أنت»!.

هل كانت كلمتها تلك هي مبدأ التَّصدُّع؟ هل كانت سبب ظهور الشَّرخ الذي أودى بحياتها إلى انهيار متواصل؟

على كُلٍّ لم يزد ما قالته عن كونه مُجرَّد كلمة؛ ومهما كانت مُغوية تبقى مُجرَّد كلمة، وليس من العدل أن تنهار حياة المرء لسنين طويلة (وإلى النِّهاية) من أجل كلمة لم يستغرق قولها بضع ثوان؛ ثُمَّ إنَّها لم تقلها لشابٍّ مراهق (من عامَّة النَّاس) قد تسكن حشرة الخنفساء قلبه وتُعشِّش فيه مُطمئنَّة، لقد قالتها لكاهن كنيسة يتصَدَّى لسماع الاعترافات.. يرفع الخَطيَّة عن رؤوس عتاة الخطاة ويضعها على رأس المسيح دون أن يكون الشَّيطان قادرًا على مَسِّه ولو بقلامة ظفر من أذى، فما باله ينكسر بسهولة! ويُنهي إنصاته لها بطريقة العُشَّاق المكلومين!

«أنتِ غاوية استعباط فعلًا! أنتِ فاهمة جِدًّا أنَّ صمود الكهنة بمواجهة إغواءات الشَّياطين ليس غير ترَّهات يُشيعونها بأنفسهم حول أنفسهم، والحقيقة هي أنَّهم أسهل مطايا الشَّيطان ركوبًا وأسرعها ركضًا

به نحو الخطيئة؛ الظَّمآن أسرع النَّاس إلى تَجرُّع الماء دون احتراز لأحقِّيته في الشُّرب من عدمه؛ أنتِ خبيثة يا مريم مكرم نعيم.. عرفتِ أنَّ قلب هارون عطِش».

وما يعنيها؟ سواء قصدت إغواءه أم لم تقصد، فليس عليها عيب، العيب على من ادَّعي امتلاكه طاقة ربَّانية يُطهِّر بها الدَّنس فإذا به يسقط بالضَّربة القاضية عند أوَّل مواجهة حقيقيَّة! هذه النَّوعية المُدَّعية من البشر تستَحقّ جميع ما يجري عليها من سخافات الأقدار.

«لكن..».

فكَّرت في أنَّه قال لها: «وأنا أكرهِك» بمشاعر إنسانيَّة صادقة.. رأت (فعلًا) دموعه مثل طبقة زجاجيَّة هشَّة تسقط على أرضيَّة مآقي عينَيه فتتهشَّم إلى فتافيت متلألئة.. إنَّها لحظة تخلَّى فيها عن الادِّعاء.. عن الكهنوت والقداسة.. عن الهيمنة الرُّوحية والكبرياء الإلهي.. تخلَّى عن أغلى أيقونة ظلَّ (طوال عمره) ينقشها هالة مهيبة تشعّ حوله وعاد إنسانًا متوائمًا مع بَشريَّته.. نطق الكلمة بانكسار عاشق حقيقيّ: «وأنا أكرهك». يبدي الرَّغبة في الهجر لكنَّه يُلقي هلبه ليغرسه في قلب حبيبته.

«هل أصابك العته يا مريم؟! هل تُقدمين فعلًا على حبِّ قَسٍّ!».

ـ حُبّ؟! أيُّ حُبٍّ يا عبيطة؟ أنتِ لا تفهمين شيئًا على الإطلاق.

«اعترفتِ من قبل أنَّك أحببتِه».

ـ أحببته طبعًا. أنا أُحبّ كُلَّ النَّاس. لكن.. أنا أُحبّ هذا الشَّخص بشكل مختلف.

«غاوية استعباط!».

في يوم الأحد التَّالي ذهبت إلى الكنيسة.. لم تشعر بالغربة كما في المرَّتين السَّابقتَين، رغم أنَّها نفس الكنيسة.. نفس الصُّور المقدَّسة.. نفس شقشقات العصافير.. نفس التَّرانيم والموسيقات.. نفس المسيح المصلوب هناك. نفس تمثال أم النُّور النَّاظر إلى تحت قدميه بحزن شفيف مُعشَّق برضاء ملائكيٍّ يفقع مرارة غير القادرين على الرِّضاء والصَّبر.

ستعترف؛ وستتناول.

قامت بروح مبتهجة لأنَّها لن تلتقي أبَ اعترافٍ يمارس معها طقسًا مُقدَّسًا برتابة مُقدَّسة، لن تلتقي بمُتقمِّص شخصيَّة طبيب نفسيٍّ يستدرجها لقَصّ سيرة حياتها كي يُؤدِّي مُهمَّته العلاجيَّة المنوطة به. حتَّى أنَّها لن تحكي لإنسان لا تجتاز علاقتها معه حدود الصَّداقة، رفيق (الذي اقتربت منه كما لم تقترب من رجل قبله ولا بعده) لم تكشف له (ولا مرَّة واحدة) عن تلك الأسرار الدَّفينة لمعاناتها، إنَّها تخطو الآن نحو تحَدٍّ كبير يملأ قلبها بفرحة مُغمَّسة بالقلق، نحو رجل عَرَكه دين الآباء فيبَّس قلبه بفكرة عتيقة عن طهارة لا يمكن حصدها دون تعذيب الجسم إلى أن يموت، فيموت القلب.. رغم ذلك ها قد وصلتها من قلبه (المدفون تحت ركام تعاليم الكنيسة) ذبذبة حياة!

خطت نحو مكانه المعتاد في أقصى الكنيسة (حيث يخبو الضَّوء قليلًا ناشرًا جوًّا من السِّرية يطمئنّ له السَّاعون للاعتراف) وبينما تجلس انتبهت سريعًا إلى أنَّ الجسم الكهنوتيّ الجالس قبالتها مُنتفخًا بسمنته لم يكن جسم الأب...

«ما اسمه؟!».

لم تكن عرفت اسمه بعد!

صدمتها المفاجأة، فسارعت بالوقوف قبل أن تلمس مؤخِّرتها حافَّة الكرسي. استدارت عائدة لكنَّها لم تخرج من الكنيسة. اختارت مكانًا هادئًا بعيدًا عن التَّناول وجلست حزينة.

«لِم لَم يأتِ؟».

أصوات آلات التَّنبيه الخاصَّة بالسَّيارات الزَّاحفة في الشَّارع تشتبك مع شقشقات العصافير السَّارحة في فضاء البهو ذي السُّقوف القبويَّة شاهقة الارتفاع.. شعرت بحرارة الجوّ ترتفع.. أحسَّت بالزَّهق.. كانت ستُحدِّثه اليوم عن صفات المَسيحيّ الصَّالح.. المَسيحيُّ الصَّالح لا ينبغي له كره أحد. لا يكره حتَّى عدوَّه.. فما باله وهي ليست عدوًّا، بل بنتًا (من شعب المسيح) ارتاحت له!

كانت مُجهِّزة العتاب.. ومُجهِّزة صوتها المكسور أيضًا.. فرجل تنازل عن هيبته المُقدَّسة ليقول لها برنَّة العشَّاق: «وأنا أكرهك» جدير بأن تُكسِّر صوتها له.. وتُكسِّر قلبها.. وتُكسِّر روحها.. وتُكسِّر رأيها الذي عاش أبوها محاولًا كسره، فانكسر هو ومات!

أبٌ يقف هناك (عند المذبح) يُقدِّم كِسرات الخبز. وآخر يُقدِّم ملعقة النَّبيذ. الشَّعب مُنضَّد في طابور لممارسة سِرَّ التَّناول، إنَّهم يأكلون لُقَم الخبز لحم المسيح، ويرشفون النَّبيذ دمه، ليسري فيهم بنبله وطهارته. يتخلَّصون من موتهم بقيامته الأبديَّة، وحتَّى إذا صعدوا إلى ملكوته (وهو فيهم بلحمه ودمه) لا يدينهم.

الآباء لطفاء. لا يبدون ذكورًا!

ربما الذُّكور هم الوالدون.. الأخوة.. الأزواج.. وكُلّ من وضعته الظُّروف وليًّا لأمر إحداهن، هؤلاء هم الذُّكور الطُّغاة، لكن البعيد منهم عن الأمر والنَّهي رجل لطيف حَقًّا، ربما لهذا السَّبب يعزف معظم القسس عن الزَّواج، ويبدو المسيح (في جميع الصُّور) ألطف منهم جميعًا!

فجأة هبَّت واقفة كالملسوعة وهتفت لنفسها: «ممكن ذا؟! هل معقول أن يكون الرَّب يسوع المسيح قد رفض الزَّواج حتى لا يكون ذكرًا كريهًا؟ ليبقى في وجدان أيّ امرأة رجلًا لطيفًا يرمز فقط للحُبّ؟! لماذا لا يكون الأمر هكذا؟».

اتَّسع صدرها جدًّا لسلام نَفسيٍّ رائع.. روحها يُحلِّق في الدِّفء، وعيناها تدمعان.

«يمكن يكون ذا.. ما المانع!».

انتشاء عبَّأ خلاياها بإحساس الرَّاحة؛ همست:

ـ متشكِّرة جدًّا لروحك يا بابا.

رغبت في التَّناول بشغف.. تعرف أنَّ التَّناول لا يصحّ قبل الاعتراف.. تقول التَّعاليم إنَّ التَّناول المثمر يكون بعد الاعتراف والتَّوبة، كي ينبت لحم المسيح بأنسجة جديدة طاهرة، وليجري دمه في عروق مغسولة.

لكن من يجرؤ على القول بأنَّها لم تعترف حالًا! وأنَّ فهمها الجديد لا يعني اعترافًا صادقًا يُصلح إيمانها؟ من يجرؤ على الإيمان بغير قدرة لحم المسيح على سحق الأنسجة النَّجسة بالخطيئة، وأنَّ لحمه قادر

على تطهير أوسخ النَّجاسات، ودمه يغسل أقذر الأوردة؟

تحرَّكت نحو الخبز والنَّبيذ مثل عروس خجلى تمشي ببطء وخجل، تفكِّر فيه هو (الأب هارون) تحديدًا.

«يالعذوبة صوته وهو يقول برنَّة عتاب: وأنا أكرهك».

- 22 -

ضغطت صُوفيَّا على مفتاح الكهرباء فانطفأت اللمبة داخل غرفتها. أعتمت، لكن الإضاءة المتسرِّبة إليها من بين الشُّقوق (التي تشعّها لمبة السَّطح المضاءة) تمنحها نورًا خافتًا رومانسيًّا تحتاجه جدًّا في ليلتها هذه. الليلة العظيمة.

إنَّها لا تجلس في ركن السَّطح لتقرأ رواية حُبٍّ.. إنَّها داخل غرفتها تعيش قصَّة حُبٍّ حقيقيَّة.. ملتهبة. فيها مشاهد واقعيَّة لجنس حَميميٍّ. هارون عريان في سريرها يثير شبقها بملاءة خفيفة يفردها على عريه النَّافر. تكاد تسمع أنفاسه الملتهبة اشتياقًا لدخول السَّرير.

مُتشوِّقة إليه أكثر منه اشتياقًا لها، مع ذلك تلصَّصت تنظر إلى ركنها من أحد الشُّقوق.. إنَّه قميء.. والقطَّة البيضاء (الجالسة وحيدة في مكانها على حافَّة السُّور) قميئة. وصوت ارتطام أمواج البحر بصخور الشَّاطئ قميء.. تَحوَّلت إلى داخل غرفتها فاعترضتها صفوف الرِّوايات المرصوصة على المنضدة المتهالكة.. روايات قميئة، وكُتَّابها قميئون.. حتَّى هي ذاتها قميئة، لأنَّها انشغلت (طول تلك السِّنين الماضية) بقراءة هذه الأوهام والتَّخيُّلات القميئة!

فكَّرت في أنَّها لو كانت طلبت (قبل مرور كُلّ تلك السِّنين الماضية) من نينة مريم رؤية رجل حقيقيّ لكان ذلك أفضل جِدًّا.. كان زمانها تزَوَّجت حبيبها هارون، وأنجبت منه عيالًا.. وكان طبيعيًّا أن تنتقل

بأسرتها إلى شقَّة رحبة مبنيَّة بين شقق النَّاس، تنعم بالونس بدلًا من البقاء مَنفيَّة في هذه الغرفة القميئة على هذا السَّطح القميء، كانت ستعيش حياتها كما ينبغي أن تُعاش الحيوات السَّعيدة.

ومثلما حزمة نور انفلتت من أحد الشُّقوق لتلتصق بوجه المسيح سقطت حزمة أخرى على وجه هارون المنزوع الشَّفتين.. صفَّا أسنانه تعرَّيا.. برزت أنيابه.. لِثَّته الحمراء تلمع.. وجه هارون جزء مرعب من جمجمة بشريَّة حيَّة، رغم ذلك انسابت إلى جواره وتمطَّت تحت الملاءة مضطجعة على جنبها الأيسر. أحاطت صدره العريض بذراعها، وألقت ساقها اليمنى على قصبتَي ساقَيه، وأخذت تشرب ملامحه بعينيها رشفة رشفة.

سخونة تحت الملاءة.. أنفاسه لها شذى رائحة باقة ورد صَيفيَّة.. قَبَّلت أسنانه.. همست:

ـ على فكرة.. شفتاك طعمهما طعم التِّين.

تحَسَّست بطرف أنفها تحت سالفه.. شمَّته عميقًا قبل أن تهمس في أذنه:

ـ خَدَّك رائحته رائحة التُّوت.

«حقُّه خالد جودت!».

خالد جودت ظَلّ يتمَنَّى لو يأكل أصبع حبيبته سلمى.. (حقُّه)؛ لكن الكاتب لم يسمح له بذلك! لعلَّه خاف من تحَوُّل روايته الرُّومانسيَّة إلى رواية رعب!

عضَّت صُوفيًّا صدغ هارون عضَّة خفيفة.

«كُتَّاب غير حقيقيِّين، ليسوا مفرطي الإنسانيَّة. قرفت منهم، بالكاد يعالجون القشور، يتهيَّأ لي الدَّم هو مفتاح الرُّومانسية، حبيبي لا يكون حبيبي لو لم آكلُه أكلًا».

عَضُد هارون أسفل عنقها.. ذراعه تضُمّ ظهرها إليه. أصابع كفِّه انتشرت على كتفها.. هَيَّجته العضَّة فضمَّها إليه بقوَّة ألقت نصفها العلويّ فوق صدره، وأسرها بحضن مُتعطِّش للهصر والعصر.

انساب شعرها حول وجهه مثل خيمة صغيرة.. رفع رأسه وقبَّل شفتَيها بأسنانه.. همست بصوت بعيد:

ـ عضّني.

سمع الكلام.. وعضَّهما عضَّ عاشق رقيق، فهمست بصوت أبعد:

ـ عض قوي.

عضَّ أقوى، فسمع صوتها ينسرب من عند الآفاق السَّحيقة لقلبها:

ـ قوي قوي يا حبيبي.

لن يعَضّ أقوى من ذلك.. لو فعل لانتزع شفتَيها.. ثُمَّ أنَّ إغراء عَضّ الثَّديَين المحبوسَين خلف ملابسها الضَّيِّقة يناديه بمجون.. فكَّ أزرار الثَّوب الظَّاهر فتهدَّل مفتوحًا.. رفع أطراف الثَّوب المَخفيِّ ففضح سِرَّ غواية ثنيَّات البطن والصَّدر.. انكشف السُّوتيان (على حقيقته) ديوسًا قوَّادًا، يزعم الحماية والسَّتر في حين يدعو للخلاعة والتَّهتُّك.. غمز حبَّتي الكمِّثرى بأنامله فتدلَّتا ناصعتَين من سقف الخيمة.. كلُّ حَبَّة لها حلمة!

قست موزته.. صارت لها حِنية قوس.. تصَلَّبت.. نكأت خصر صُوفيًّا العاري فلسعتها الحرارة.. مَدَّت يدها تتَحسَّس الأداة السَّاخنة..

إنَّها نار صُبَّت في عمود عجيب الإنشاء قدَّ من لذَّة حرَّاقة.. شعرت بقلبها ينتفض.. يتفتَّح كطلع وردة يطلب اللقاح.. همست بصوت مهدود:

ـ أنا امرأتك.. حبيبتك.

أفلت منه وحش الجنس.. طوَّح جسمها تحته واعتلاها، واستعمل الحربة دون رحمة.. خرق برأسها شَقَّ الجسد الأنثويّ فصنع فيه فَرجًا انفتح مؤدِّيًا إلى عمق جحيم العربدة.. تأوَّهت كأنَّها الضَّحيَّة المستباحة. همست بصوت غائم مضعضع:

ـ دَخِّل موزتك في قلبي.

أخذ طلبها على محمل الجِدّ.. ظلَّ يضغط بخصره على خصرها. أعماقها تمصَّ الموز أشهى مَصّ، يستحلب حريقه.. يرتعد ارتعادات خاطفة.. يواصل الضَّغط.. يسألها بصوت مهروس تحت ضروسه:

ـ دخلت الموزة قلبك؟

تحاول الكلام لكن كانت قد تاهت.. تحشرج صوتها وتمكَّنت من أن تقول:

ـ دخِّلها قوي.

كلامها (مهما قَلّ) يثيره جدًّا، فكيف به وقد تَهشَّمت قوائم صوتها ليزحف إلى أذنيه زحفًا:

ـ ارفع ساقاي.. قبِّل أوراكي.. قبِّل كُلَّ حتَّة.. امرأتك لديها أجمل ساقَين.. ساقان دوَّختا الرِّجال، خصوصًا شريف.

لا يعرف شريف.. ولا يريد معرفة شيء عنه الآن.. لم يتَوقَّف.. حتَّى لم يهدأ.. العكس حصل.. بلغ قمَّة الهياج كأنَّه يصارع طيف هذا الرَّجل

الذي جرؤ وورد على خاطر أنثاه وهي تمارس معه الحُبَّ! ثُمَّ كيف تسمح لطيفه بالورود على خاطرها في هذا الظَّرف؟ العقوبة العادلة هي تفويت حربته في لحمها؛ لكن الحربة تدخل وتخرج حيرانة بين مواقع اللذة! تأوُّهاتها المتصاعدة ترجوه أن يخِفَّ عنها؛ لقد قسى عليها جِدًّا. ما ذنبها إن كان هو من أرسل بها إلى سماوات الغياب، فضاع عقلها لتقول ما لا تعيه؟ ليس ذنبها، وكأيّ رجل لطيف (فور شعوره بالخطأ تجاه أنثاه يشرع في مصالحتها) رفع ساقَيها المرمريَّتين، ومال برأسه إلى فخذَيها، وغرق في حُمَّى التَّقبيل والعَضّ.. زمجرت صُوفيًّا كذئب يشرع في مطاردة صيد.. ارتَجَّ جسمها.. قبل أن تموء مثل قِطَّة وحيدة تقعي على حافَّة سور بناية شاهقة تطلّ على بحر الإسكندريَّة. ثم شخرت مثل بقرة تُذبح وهي ترتجف ارتجافات سريعة.

وسكنت.

عندما همَّ بالنُّهوض عنها قبضت على رأسه بكفَّيها، وعلى خصره بساقيها، وهمست:

ـ خلِّك حتَّة.

همد فوقها. وترك رأسه مستريحًا بين نهديها، وتركت أناملها تتخلَّل شعره الطَّويل وتضغط جذوره. قالت:

ـ مُتشكِّرة جِدًّا لوجودك في حياتي.

لم يرُدّ. رفع رأسه وقبَّل بين نهدَيها وعاد إلى ما كان عليه.

ـ المهم تكون موجود وأنا أغادر الحياة.

سمعته يهمس ببطء كأنَّه مُخدَّر:

ـ لن أتركك.. سأظل معك حتَّى آخر ثانية.. لكن...

ـ لكن ماذا؟

ـ من يبقى معي أنا؟

ـ ذكرياتي يا حبيبي.

ـ ممكن أعرف من شريف هذا؟

في هذه اللحظة اختلست نظرة باسمة إلى وجه المسيح.. إنَّه يواليها (هذه الأيَّام) بالأحداث السَّعيدة؛ فهي لم تعثر على رجل حقيقيٍّ وفقط، لم تنبت لها ساقان مثيرتان وفقط، لم يكتمل نموُّ ذراعها المبتسر وفقط. لم تمارس الجنس لأوَّل مرَّة في حياتها وفقط، بل إنَّ حبيبها يعشقها ويغار عليها.

أَحبُّ الرِّوايات إلى قلبها تلك التي دارت حبكاتها حول الغيرة القاتلة.

ترى صُوفيَّا الغيرةَ القاتلة أرفع درجات التَّعبير عن الحُبّ. القتل بدافع الغيرة قمَّة الرُّومانسية، وبقع الدِّماء النَّازفة عن القتل بسبب الحُبِّ هي باقات زهور حمراء بَلديَّة طازجة.

لو خبطها هارون الآن على رأسها وقتلها ستكون شاكرة جدًّا لشريف، ابتسمت وهي تشمّ صدغه.. تدغدغ بطرف أنفها خدَّه.. قالت:

ـ ذا شريف سعادة.. رجل خياليٌّ داخل رواية من هذه الرِّوايات فوق المنضدة، ساقا حبيبته لولي دوَّختاه.. لو شاف ساقيَّ ستدوِّخانه أكثر.

ارتمى جوارها مديرًا ظهره لها.. استدارت إليه، حضنته من الخلف، قالت:

ـ اطمئن يا حبيبي.. أنا صحيح عرفت رجالًا كثيرين، لكن كُلُّهم

رجال ورقيُّون.. أنت الرَّجل الحقيقيّ الوحيد في حياتي.

انقضَّت على خدِّه.. قبَّلته قبلة طويلة.. وتنَفَّست عميقًا تستقبل موجة انتشاء عاصفة قبل أن تفتح فكَّيها وتعضّه.. كان ما سبق كافٍ لتشتَدّ موزته وتأخذ وَضعيَّة القوس، وليسكر (بسبب هذه الوضعيَّة) فلا يشعر بشيء، غير أنَّه أفاق على تضَوُّع رائحة توت ثقيلة، ودمٌ ساخن يتدَفَّق إلى رقبته.. رفع كفَّه يتحَسَّس موضع الألم، فأفزعه أنَّ أنامله لمست عظم فكِّه. بينما استلقت صُوفيَّا على ظهرها تلوك لحم صدغه وهي تئنّ مُستعذبة الطَّعم، كأنَّ تلك اللذة الجنسيَّة (التي اجتاحتها قبل قليل) قد عادت لأداء نفس الفعل!

همس:

ـ حرام عليكِ يا صُوفيَّا.. شوَّهتِ وجهي.

ـ وأنا أقرأ الرِّوايات كنت أتعَجَّب من أنَّ العشَّاق لا يأكل بعضُهم بعضًا! أنا وأنت لازم نكون واحدًا، ليس اثنان؛ هل هناك طريقة غير أن آكلك؟

نظرت في عينَيه نظرة طويلة.. ونظر في عينَيها نظرة طويلة.. رأى دموعًا تتجَمَّع في مقلتَيها، وسمع صوتها مبحوحًا (مثل عزف فلوت اختلط بأنين كمنجة) تقول:

ـ أنا مُتشكِّرة جِدًّا للرِّوايات.

- 23 -

عرفتْ اسمه.

إنَّه الأب هارون.

يقطن وحيدًا في شقَّة ضَيِّقة من حي البساتين، وعرفت أنَّه مُتغيِّب عن الصَّلاة في الكنيسة لمرض عارض، وأنَّه لا يستقبل أحدًا في محَلِّ إقامته، مع ذلك تكَبَّدت عناء المشوار وحرج السُّؤال عن عنوان قَسٍّ في منطقة ذات غالبيَّة مسلمة، وها هي تقف أمام باب شقَّته تنتظر استجابته بعد أن ضغطت على زرِّ الجرس فأصدر أزيزًا مبحوحًا.

ماذا تفعل! وأيُّ قوَّة تدفعها إلى ما تفعل؟ ولِم!

ثلاثة أسئلة تطرق عقلها كُلَّما أفاقت من هذا الإحساس المبهم الذي يقودها كحيوان مُغمَّى يتقَدَّم إلى هدف لا يراه، ولا يرى شيئًا من معالم الطَّريق، كي لا يُفكِّر إلَّا في الاندفاع إلى الأمام وفقط!

مريم مكرم نعيم (نفسها) تجيب على هذه الأسئلة ببساطة:

إجابة السُّؤال الأوَّل: إنَّها تفعل فعلًا غرائبيًّا؛ حيث تلاحق أحد القسسة ملاحقة غير معقولة!

إجابة السُّؤال الثَّاني: القُوَّة التي تدفعها لفعل ذلك قوى (لا شَكَّ) خارقة.. ربما إلهيَّة! فهذه القوَّة تمكَّنت بسهولة من جعلها ترتاح لرجل كهنوت! هذا شيء لا تُصدِّقه، إذ لم تكن تشُكّ في أنَّ رجال الكهنوت

ليسوا سوى رجال الشِّرير، أي أشرّ رجال، يُكبِّلون الإنسان ويحرمونه من أبسط حقوقه في الحرِّية بدعوى أنَّ يسوع يرى ذلك أفضل جِدًّا! فكيف يمكن تفسير انجذابها لواحد من هؤلاء (أو بالأحرى ارتياحها له) إن لم يكن وراء ذلك قوَّة إلهيَّة خارقة؟

إجابة السُّؤال الثَّالث: إنَّها لن تستطيع مقاومة إرادة الآب السَّماوي الذي يقهر الكُلَّ لمشيئته.

ثمَّ.. ثمَّ.. عليها ألَّا تخجل من مصارحة نفسها بالحقيقة.. الحقيقة هي أنَّها تريد فعل ذلك، وسعيدة بفعله!

تعرف إجابة الأسئلة الثَّلاثة مع ذلك كثيرًا ما يعيد عقلها الباطن طرحها عليها (في أغلب الأوقات) وكأنَّه يُلحّ عليها بضرورة الانتباه إلى أنَّ هناك شيئًا خاطئًا يخصّ مسلكها تجاه الأب هارون.

لكن إذا كان هناك شيء خاطئ فلماذا لا يُحدِّده هذا العقل الباطن بوضوح؟!

لا ترى ثمَّة خطأ تجترحه؛ فما الخطأ في تواصل إنسانة بإنسان مالت إليه وارتاحت له؟!

«حتَّى وإن كان قَسًّا!»

ـ ما عليه القَسّ؟!

«رجل مدسوس خلف زيٍّ أسود يخبِّئ حقيقته.. زيٍّ يُظهر الإنسان على غير حقيقته.. أتعرفين؟ لو لم تتعامل النَّاس مع الأزياء لما ضلَّت عن حقيقة أصحابها.. زيُّ الكهنوت يتعَمَّد إشاعة حالة التباس في الفهم، يُصدِّر إلى رائيه صورة مُعقَّدة عن صاحبه تفيد بأنَّ هذا الكهنوتيّ

ليس بشرًا! بل نسخة من المسيح، الإله المُتجسِّد بشرًا، وبالتَّالي فإنَّ القَسَّ هو مسيحٌ متجسِّدٌ يجب التَّعامل معه لا كما يتعامل البشر فيما بينهم، بل كما يتعامل البشر مع الآب: بقداسة.. بمهابة.. بخشية.. وبكثير من التذلُّل والدُّونيَّة اللذين يجب تضمينهما بكثير من الحُبِّ!».

ضغطت على ذرِّ الجرس مرَّة أخرى.. ضغطة طالت ربما لخمس ثوان كاملة.

قيل لها إنَّه لا يستقبل أحدًا في محلِّ إقامته مع ذلك كانت مُتأكِّدة من أنَّه سيفتح الباب!

هو مُجرَّد إنسان.. ولا يغيب عنها (كفتاة جامعيَّة تدرس السِّياسة والاقتصاد) أنَّه مهما ارتدى إنسان طبيعة غير طبيعته، ومهما تمكَّن من خداع الغَير، فإنَّه لن يتمكَّن من خداع نفسه. إنَّها ليست من بسطاء عَوامّ الشَّعب حتَّى تنظر إليه كما يريدها هو أن تنظر إليه: الرَّبّ المتأنسن. إنَّها مثقَّفة.. وقد نظرت إليه كما يجب النَّظر إليه، فلم تنطل عليها خدعة الزِّيّ الكهنوتيّ، والنَّتيجة هي تداعيه الفَوريّ من مقام الرَّبِّ المتأنسن إلى حيث مقامه الحقيقيّ: إنسان وفقط. رجل له عينان تستطيعان تقدير جمال المرأة، يُلفت شعرُها انتباهه، ولديه إحساس فِطريٌّ بمكرها الأنثويّ، والقدرة على التَّجاوب معه، حتَّى لو كان التَّجاوب بأن يقول لها: «وأنا أكرهك».

ابتسمت.

سمعت حفيف خطاه خلف الباب قبل أن يعود السُّكون، رَكَّزت ناظرَيها على بؤرة عدسة الرُّؤية، مُؤكَّد سينظر خلالها ليرى من الضَّاغط

على زرِّ الجرس، لكن هذا لم يحدث، بل سمعت الحفيف (مرَّة أخرى) وانفتح الباب!

ظهر بزيِّه الكهنوتيّ. بدا (من عدم استواء الزِّيّ) أنَّه قد ارتُدِي على عجل، ابتسم مُرحِّبًا بينما يسحب دلفة الباب إلى الخلف داعيًا إيَّاها للدُّخول، ففعلت بهدوء، أغلق الباب خلفها وأشار إليها بالجلوس.

ماذا تفعل! وأيُّ قوَّة تدفعها إلى ما تفعل؟ ولِم!

استأذنها ودخل إلى عمق الشقَّة، بنظرة بانوراميَّة سريعة إلى الريسبشن الصَّغير (الجالسة فيه) لمست الذَّوق الرَّفيع الذي يتمتع به هذا القَسّ، نوعيَّة الأثاث وترتيبه يناسبان تمامًا هذه المساحة الضَّيقة بحيث يمنحانها مُتَّسعًا مُفترضًا غير حقيقيّ! لمسات الدِّيكور بسيطة ولطيفة، قطع قليلة من التُّحف القديمة الثَّمينة تراصَّت في الأركان على بُسُط من خشب الأبانوس. أيقونات مُقدَّسة وُزِّعت على الجدران بشكل فنِّيٍّ بديع. بينما على الجدار المقابل لها عُلِّقت صورة كبيرة نسبيًّا يحيطها إطار ذهبيٌّ فخم للمعذَّبين في الجحيم: عراة وعاريات يتلوَّون بين دخان يتصاعد في سماء اللوحة، وملائكة العذاب يمسكون الحراب ويُحدِّجون الخطاة بنظرات زاجرة.

ظهر قادمًا في الطُّرقة الضَّيقة ممسكًا بصينيَّة (مُدوَّرة) عليها كأس مملوءة بعصير البرتقال، سارعت بالوقوف كي تحملها عنه لكنَّه طلب منها البقاء في مكانها، وأن تتركه يستمتع بأداء واجبات الضِّيافة، ففعلت مُبدية كثيرًا من الخجل.

للحظة فكَّرت في أنَّها تدَّعي الخجل!

لو أنَّها خجولة فعلًا لما بالغت في التَّزيُّن قبل المجيء إلى هنا.

لماذا حرصت على ألَّا تضع طرحة على شعرها؟

لماذا اختارت من بين جميع ملابسها أكثرها ضيقًا وتحزيقًا ووشاية بأقل همسة مثيرة من ثنيَّات جسمها؟

إنَّها ليست خجولة.. إنَّها خبيثة.. تستخدم الخجل كمفردة من مفردات الميك آب تضفي به على وجهها مزيدًا من الإثارة!

هتفت مريم المرآة في هذه اللحظة بصيحة ساخرة: «أحبّك وأنتِ صريحة مع نفسك».

قال:

ـ أهلا يا...

وبدا أنَّه يحاول تَذكُّر الاسم، قبل أن يستدرك:

ـ مريم! أظنُّ اسمك مريم.. صح؟

هزَّت رأسها موافقة، ونظرت بعينَيها إلى الأرض بعد أن مسحت الابتسامة منهما، كأنَّها تعلن مُضيِّفها بعدم رضاها عن هذه الرِّسالة التي فحواها: «أنتِ غير مُهمَّة بالنِّسبة لي درجة نسيان اسمك». أو « أنتِ شخص طارئ في حياتي حتَّى أنَّني أتذَكَّر اسمك بجهد».

ـ ألف حمدًا لله على سلامتك.. عرفت في الكنيسة أنَّك مريض منذ فترة فحبّيت أزورك وأطمئن عليك.

ـ مُتشكِّر لمَحبَّتك يا بنتي.. كُلُّه خير.

وأمسك كأس العصير وقدَّمها لها:

ـ تفضلي اشربي العصير قبل أن يبرد.

وابتسم ابتسامة واسعة واكبت ضحكة قصيرة انطلقت من فمها.

دمه خفيف جِدًّا.. يحب المزاح.. هذه هي المرَّة الثَّانية التي يمازحها فيها.

تتذكَّر ممازحته الأولى عندما قال لها (في أوَّل لقاء) وهي جالسة أمامه في الكنيسة تغالب خجلها: «اعترفي أحسن لك».

أراد بسط فُرُش الأريحيَّة بينهما فقال مُستفسرًا:

ـ ما زلتِ مُصرَّة على أنَّ الآب مُتزوِّج؛ أو جَرَّب الزَّواج!

هزَّت رأسها بالنَّفي، فاتسَّعت عيناه بمزيج من الاندهاش والسَّعادة، وتقدَّم بجذعه إلى الأمام، وقال محاولًا منع نفسه من الهتاف:

ـ لِم؟

فجأة ارتفعت أصوات غاية في الإزعـاج.. ضربات مطرقة على سنديان! قطَّبت جبينها مُعبِّرة عن ضيقها بهذا الضَّجيج المباغت.. قال معتذرًا:

ـ آسفون يا أستاذة مريم.. لكن كما رأيتِ: المنطقة شَعبيَّة. وهذه أصوات ورشة الحدادة تحت البيت.

ابتسمت كأنَّها تعتذر عن لفتتها المحرجة.. همست:

ـ أنا آسفة.. ليست مشكلة.. لكن.. اسمح لي بسؤال يلحّ عَليّ.

في جزء من ثانية ورد على خاطرها أنَّ الأناقة التي يتميَّز بها أثاث الريسيبشن، وترتيب التُّحف في أركانه، يشيان برجل مُحبٍّ للحياة، لا الموت، يستمتع بالدُّنيا كدار ينوي البقاء فيها طويلًا، لا مجرَّد مَحطَّة عبور قاحلة إلى الملكوت.

هَزَّ رأسه بالموافقة، فقالت:

ـ لماذا ترتدي زيَّ الكنيسة في البيت؟

التمع في خاطرها أنَّ الحياة رجل وامرأة. وأنَّ القَسَّ هارون لن يفلت منها.

ضحك وقال:

ـ لم أرتده إلَّا لمقابلتك.. وارتديته بسرعة.. لم أتمكَّن من ضبطه جَيِّدًا.. على فكرة.. كنت سأنظر من العين السِّحريَّة لأرى من الزَّائر ولم أفعل. لكن توقَّعتك أنتِ.. البارفان الذي تضعينه لا يخطئه أنفي.

رفعت حاجبَيها وصَوَّبت إليه نظرة تعَمَّدتها مربكة.. وقد أبدى ارتباكًا بالفعل. داهمها سؤال لم يسبق له أن خطر على بالها: «أهي من تحاول اصطياده، أم هو من يحاول اصطيادها!».

لا بُدَّ أنَّه يحاول، وإلَّا كيف يدَّعي نسيان اسمها بينما لا ينسى رائحة برفانها!

تظاهره بنسيان اسمها ليس إلَّا تفصيلة صغيرة من تفصيلات عمليَّة صيد كبيرة.

ضحك ضحكة صافية وهو يقول:

ـ خَلِّ بالِك.. على رأي إخواننا المسلمين: الرَّجل والمرأة إذا انفردا يكون الشَّيطان ثالثهما! شفتِ كم كان ضَروريًّا ارتداء زيّ الكنيسة؟

حتَّى اللحظة لم تكن رفعت الكأس إلى شفتَيها بعد، فقال:

ـ اشربي. أم أنَّكِ صائمة!

ابتسمت هذه المرَّة ابتسامة واسعة، وجال في خاطرها أنَّه لو كان صيَّادًا فهو صيَّاد بارع.. وأنَّ طريقته في الصَّيد تعجبها.. طريقة لا تُشعِر

الفريسة بالفزع قبل وقوعها في الفَخِّ المنصوب لها.

«لماذا تفكِّرين هكذا يا مريم؟ لماذا الصَّيد والصيَّادون والفرائس وكُلّ هذه الأجواء الاحتياليَّة! كوني بريئة مرَّة واحدة في حياتك».

قال: أنا مُتأسِّف لكِ بسبب الكلمة المزرية التي قلتها لكِ سابقًا؛ كلمة لا يجب أن يقولها مَسيحيٌّ عاديٌّ، فما بالك بواحد «أبونا» زَيِّي!

وضحك قبل أن يتعَمَّد إكساء وجهه بملامح جادَّة ليردف:

ـ لماذا ترتدين هذه الملابس المثيرة يا أستاذة مريم؟

تحيط الكأس بيديها. لم ترفعها بعد إلى شفتَيها. طرق الحديد يصدر أصواتًا رتيبة مزعجة. قالت:

ـ أرتديها لأنِّي أراها جميلة. لا لأنَّها مثيرة...

ارتفع صوت مريم المرآة مُحتجًّا: «كذَّابة من أعلى رأسِك حتَّى أخمص قدمَيكِ».

ـ .... لكن أنا سعيدة لأنَّكَ توقَّفت عن مخاطبتي بـ: يا ابنتي. ويارب تتوقَّف قريبًا عن إلحاق اسمي بكلمة أستاذة.

إنَّه صيَّاد فعلًا! وإلَّا لماذا ارتبك هكذا؟

ربما لأنَّه صيَّاد غير محترف!

في جميع الأحوال هو صَيَّاد، وهي كشفت له عن ذلك بوضوح. ولقد فزع حتمًا، وإلَّا لما سارع بالوقوف وهو يهمس بصوت يتخَفَّض تحت وطأة ضربات قلب ضاع انتظامها فجأة:

ـ استأذنِك ثوان.. لديَّ مكالمة هاتفيَّة حان وقتها الآن.. سأجريها بينما تشربين هذا العصير الذي كاد يتخَمَّر.

لكنَّها وضعت الكأس على المنضدة وهبَّت واقفة بدورها.. قالت:

ـ أعرف أنِّي أثقلتُ عليك.. أنا آسفة.. اسمح لي بالمغادرة الآن.

عكست عيناه رغبة حقيقيَّة في ألَّا تغادر.. قال:

ـ لم تخبريني بعد عن سبب تغَيُّر رأيك في الموضوع إيَّاه!

ـ في مرَّة ثانية لو حبّيت.

ـ أُحبُّ بكُلِّ تأكيد.

ـ أزورك غدًا في نفس الميعاد؟

ـ منتظرك.

وقبل أن تفتح باب الشقَّة نظرت حولها نظرة بانوراميَّة سريعة، وهمست مبتسمة:

ـ على فكرة، ذوقك حلو.

- 24 -

السَّاعة ما بين الخامسة والسَّادسة صباحًا. تصعد السَّيِّدة مريم مكرم نعيم درجات السُّلَّم من الطَّابق الأخير إلى السَّطح تحمل صينيَّتها المُدوَّرة بما تحويه من طعام وشراب. سؤالها اليوميُّ (المعتاد). الإجابة اليَوميَّة (المعتادة).

صباح لطيف. لسعة برد يُشيعها هواء البحر، وربتة دفء تحنو بها شمس مشرقة رائقة لا تشاغبها السُّحب. اندهشت مريم عندما رأت صُوفيًّا لا تزال تجلس على كُرسيِّها في ركنها المُفضَّل من السَّطح (هذا الوقت تكون مستغرقة في النَّوم).

اعتبرت السَّيِّدة مريم ما رأته حدثًا سعيدًا، وربما دالّ على بدء اعتدال مزاج صُوفيًّا فتنام الليل وتصحو النَّهار (زيّ النَّاس).

مع ذلك لم تُحبّ الإفراط في التوقُّعات الجيِّدة بخصوص صُوفيًّا، فربما ما زالت تواصل الصَّحو (صباح اليوم) لتغرق (بعد قليل) في نومها النَّهاريّ المعتاد!

لاحظت أيضًا ألَّا روايات بين بين يديها، أو ملقاة تحت كُرسيِّها!

عمومًا: إنَّه يوم استثنائيٌّ بالفعل، فحتَّى وجه السيِّدة مريم مكرم نعيم كان مرتاح الملامح، يشي بأنَّ صاحبته معتدلة المزاج، وهو ما لم يحدث منذ سنين طويلة مضت؛ تعرف السيِّدة مريم سبب استرخاء أعصابها، سبب هذه الرَّاحة النَّفسيَّة العجيبة التي لها مفعول السِّحر في

الإنسان جسدًا وروحًا: لقد توصَّلت أخيرًا أخيرًا (في الليلة الفائتة) إلى مبدأ الشَّرخ الذي شَقَّ مبنى حياتها ففسخه. هكذا يمكنها مغادرة العالم بعد موتها بروح مُطمئنّ. وإلى حين الرَّحيل (وتحسّ أنَّه قد دنا جِدًّا) يمكنها العيش كإنسانة طَبيعيَّة.. أن تترك مريم المرآة لضجيجها الليليّ دون الالتفات إليها.. أن تنام ليلًا لتصحو في الصَّباح، لا في الظَّهيرة.. وتنزل إلى مَحلِّ عملها لتبتسم في وجه زبائنها.. أن تتَجوَّل في السُّوق وتشتري لوازمها. وكلَّما برز لها رأس أيّ ذكرى مؤلمة ستقطعه!

لكن ما سبب عدم نوم صُوفيَّا (كعادتها في هذا الوقت) وجلوسها في ركنها تُحرِّك رأسها هنا وهناك تنظر إلى ما حولها بوجه ترتسم عليه ابتسامة لطيفة؟

هذا عجيب! كم تضفي الابتسامة على الوجوه رونقًا ساحرًا حتَّى وإن كانت وجوهًا لا تتمتَّع بأيِّ جمال.. هذا عجيب!

لسنين طويلة لم تر صُوفيَّا تبتسم (حتَّى ولو لمرَّة يتيمة) أمَّا في صباح اليوم، الذي استقبلته السيِّدة مريم براحة بال (على غير عادتها) ترى البسمة تملأ وجهها!

هطلت دمعتان من مقلتَيها.. تعرف أنَّ كُلًّا منهما مُقيَّدة إلى الأخرى برباط شُعوريٍّ قَويّ.

تتماسك.. تهتف بصوت مرح:

ـ صباح الخير.. ما كُلّ هذا النَّشاط!

ـ صباح الخير يا نينة.. من فضلك اعملي شغلك في الغرفة بهدوء حتَّى لا توقظي هارون.

ارتفع حاجبا مريم وهي تسأل صُوفيًّا بصوت منخفض:

ـ هارون! من هارون؟!

ـ المُصوِّر يا نينة! الرَّجل الذي أتيتِ به إلى هنا سابقًا.

ـ ولماذا أتى ثانية؟

ابتسمت صُوفيًّا ابتسامة ضيِّقة خجلة، وهزَّت كتفَيها كأنَّها لا تبالي بسبب مجيئه.

اتَّجهت مريم بخطوات مرتبكة إلى باب الغرفة.. فتحته بهدوء.. طالعتها المنضدة المتراصَّة فوقها وتحتها وحولها مئات الرِّوايات. باب دورة المياه في المواجهة.. ثُمّ جزء من حافَّة السَّرير في الموضع المُفتَرض لقدَمي شاغل الفراش.. خطت خطوة إلى الدَّاخل. خطوة على طرفَي حذائها. فانكشف السَّرير بالكامل.

ارتَدَّت السيِّدة مريم مكرم نعيم إلى الوراء مذعورة عندما عبرت السَّماء سحابة من طيور النَّورس. خُيِّل لها أنَّ حفيف أجنحتها ليس غير صوت انهيار جدار يستهدفها أثناء سقوطه.. ما هذا الوجه المُشوَّه. منزوع الصِّدغين والشَّفتَين.. مسلوخ الجبهة.. مقطوم الأنف.. الصَّدر بلا حلمتَين.. البقع الحمراء.. رغم ذلك بدا مُسبلًا جفنَيه باطمئنان وسعادة. وينام عميقًا!

اجتاحتها نوبة غثيان لكنَّها تمالكت نفسها كي لا تقيء.. شدَّت عضلات ساقَيها بأقصى ما تستطيع لتخطو نحو مساحة ضيِّقة من المنضدة تناثرت عليها أدوات مكتبيَّة وأقلام كتابة وأخرى للألوان. أزاحت كُلَّ هذه الأشياء إلى جانب وأراحت الصِّينيَّة في هذه المساحة

المتاحة، وخرجت من الغرفة مسرعة متحاشية النَّظر إلى السَّرير.

تهرول نحو السُّلم.. تسمع صوت صُوفيًا وهي تقول:

ـ نينة.. من فضلك.. من بكرة اعملي أكل يكفي اثنَين.

وقفت مريم.. استدارت تنظر لصُوفيًا.. الأفق سماء مُلبَّدة بغيوم سوداء تقترب بسرعة.. النوَّة.. أسراب طيور النَّورس تهرب نحو أعشاشها في الأطراف البعيدة من المدينة.. بدت صُوفيًا مُفزِعة.. آكلة بشر.. نسائر لحم هارون ناشزة من الفلجات بين قواطعها وأنيابها، والدَّم يسيل من شدقَيها.

«البنت تجنّنت!».

نزلت السَّلالم تركض بسرعة لا تناسب هشاشة جسمها ولا سنين عمرها.. قلبها يتَخبَّط بين ضلوعها.. أنفاسها تتضارب.. دموعها تنهمر..

اتَّجهت صُوفيًا إلى غرفتها وقد اتَّسعت ابتسامتها الصَّافية.. ستوقظ هارون حالًا ليشاركها فطورها، فالسَّاعات التي نامها (ابتداء من منتصف الليل وحتَّى الآن) تكفيه جِدًّا ليستيقظ نشيطًا، وليقبل معها على الحياة.

اشتدَّت الرِّيح (تكاد تقتلع الغرفة) صورة المسيح تتخبَّط، وإضاءة اللمبة الكهربائيَّة المُتسلِّلة عبر الشُّقوق تتشتَّت حول وجهه المُعذَّب ذي العينَين المرفوعتَين إلى السَّماء محتارتَين.. هدير الأمواج المتقافزة على سطح البحر يصطخب كأشدّ ما يكون الاصطخاب.. هزيم الرَّعد؛ صُوفيًا تقترب من السَّرير بمرح، تقول:

ـ حبيبي.. لن تبقى طوال الوقت في السَّرير.. كفاية.. انهض كي نتناول فطورنا ثُمَّ نذهب لنجلس في الرُّكن.

لم تعد لوجه هارون بشرة يمكن للملامح أن تُرسَم عليها، فتُعبِّر عن مشاعره.. لقد صار وجهه عظام جمجمة بعينَين تدوران في محجرَيهما، ولسان يتقلَّب بين صَفَّي أسنان ناصعَي البياض، وشعر ينساب غزيرًا حول عظامه.

سمعته يهمس بضجر:

ـ لن نستطيع الخروج من الغرفة والجلوس في الرُّكن يا صُوفيًّا؟ النوَّة شديدة!

ـ هارون! اسمع الكلام.

بعد تناول فطور خفيف انسلَّا خارجين من الغرفة.. تحَرَّكا بين النَّواطير.. أطباق السَّتالايت تنظر مرتعشة إلى السَّماء كأنَّها ترى أشباحًا توشك أن تنقضَّ عليها من علٍ وتنزعها من نواطيرها لتلقي بها في مَهبِّ العاصفة.

الرِّيح تصفع ملابس صُوفيًّا (تُطيِّر أطرافها) مع ذلك كانت تتقَدَّم بإصرار نحو ركنها، تؤنسها دقَّات قلب هارون الصَّاخبة كقرع الطَّبل.

لم تكن تعرف أنَّ دقَّات قلب الإنسان يمكن أن تكون صاخبة بهذا الشَّكل، عرفت ذلك قبل ساعات.. كانت عارية، تعتلي هارون وتحرثه بجسمها. للحظة شعرت بالجوع، فانتبهت إلى رائحة التِّين والتُّوت المنبعثة من بين ضلوعه. مسحت بخدِّها ثديه. أثارتها قسوة حلمته الصَّغيرة فحوَّلت صدغها عنها لتقابلها بشفتَيها، أحاطتا بها ورقَّصتاها. انتشر عطر التين والتوت في الأنحاء. اخترق العطر منخريها إلى جوفها فصهل جوعها. التأمت قواطع صُوفيًّا على جذور حلمة هارون وعضَّت قويًّا فانتزعتها. صرخ صرخة لا بُدّ من أنَّ السَّمك في عمق

البحر سمعها. هبَّ نصفه العِلويُّ معتدلًا لكن صُوفيًّا ضغطت بما بين وركَيها أقوى. تحرث أعمق. عاد هارون مرتميًا إلى الخلف وهو يشهق لذَّة. ألم اللذة أطغى. الجوع يعربد في أحشاء صُوفيًّا فتُعمِل أسنانها في جلد صدر حبيبها. تنزع الجلد عن الضُّلوع فينكشف عن فجوة يتَفجَّر منها ضجيج دقَّات قلبه إلى أذنَيها، انفجر صخب النَّبض مثل انفجار قنبلة، دوشها الانفجار فسقطت من فوقه إلى جواره!

لا تنكر أنَّ صخب وجيب قلب هارون قد ضايقها، لكن ها هي تعتاده، وتأنس به؛ حتَّى أنَّها لا تشعر (في هذه اللحظة) بالخوف الذي كان يعتريها عند بدور إرهاصات النوَّة، بل ها هي ذاهبة لتجلس باطمئنان في ركنها المكشوف للرِّيح العاصفة.

خلت حافَّة السُّور من القطَّة البيضاء.

الهواء يصفِّر مخترقًا ما بين ضلوع هارون الخاوية من أيِّ لحم. تراه صُوفيًّا وهو يعاني فيما يغطِّي قلبه النَّابض بكفيَّه كي لا تُطيِّره الرِّيح. قالت له:

ـ لماذا لا تكتب رواية وتجعلني بطلتها؟

ابتسم وقال:

ـ أنا لست كاتب روايات! لست كاتب أيّ شيء!

أوركسترا الطَّبيعة تعزف أنغامها بأعلى صوت، صُوفيًّا لم تسمع ردَّ هارون، هزَّت رأسها وقطَّبت جبينها بما يعني أنَّها لم تسمعه، فأحاط فمه بكفَّيه وأعاد إجابته بصوت أعلى، ثُمَّ سارع باسترجاع يديه إلى تغطية قلبه العاري.. قالت صُوفيًّا:

ـ رأيتك في الحلم تمسك قلمًا بطول عصا رعي؛ هذا يعني أنَّك تستطيع كتابة رواية!

قهقه، فتباعد صفًّا أسنانه بشكل مفزع.. قال:

ـ قلتِ لي إنَّك رأيتني أرعى السُّحبَ ! هذا شيء مختلف عن كتابة الرِّوايات.

واصل القهقهة. قَطَّبت صُوفيًّا جبينها بدلال.. وهمست:

ـ هل تسخر من رغباتي!

ـ لا يمكن يا حبيبتي.

مال إليها وطبع بأسنانه قبلة على خدِّها.. استدرك:

ـ مستحيل! لا يمكن أسخر من رغباتك.. تعرفين أنِّني أُحقِّق لكِ منها كل ما يمكنني تحقيقه، حتَّى أنَّكِ أكلتِ كُلَّ لحم جسمي ولم أمانع. أنظري.. لم يعد باقيًا لي غير عظامي وأجهزتي الحَيويَّة. وأنا سعيد لأنَّك سعيدة. لكن كيف أكتب رواية؟!

ـ حبيبي؛ في يوم ما سأموت.. وأنت أيضًا ستموت.. بموتنا ستضيع قِصَّة حُبِّنا العظيمة هذه إلى الأبد.. في حين يجب أن تبقى ما بقيت الشَّمس، وما بقي القمر والبحر.. قِصَّة حُبِّنا يجب أن تَخلُد؛ الرِّوايات تُخلِّد قصص الحُبِّ.

ـ أنا مُصوِّر يا صُوفيًّا، وأعدك بأن ألتقط بكاميرتي صورًا عديدة تُخلِّد قِصَّتنا.

ـ أيُّ كاميرا وأيُّ صور يا هارون! كاميرتك وصورك لن يستعيدا الماضي مثلما يفعل القلم والرِّواية، هل تظنّ أنَّ قِصَّتنا عظيمة لأنَّها قِصَّة

حُبٍّ عظيمة وفقط؟ لأ طبعًا.. إنَّها كذلك لأنَّك أحببت بنتًا فتحت عينَيها على الحياة فوجدت نفسها وقد سُلِبت كُلّ مُقوِّمات الأنوثة: لا وجه بنت.. لا ساقي بنت.. أحد ذراعيها مبتسر، تجلس على كرسيٍّ مُتحرِّك تتنَقَّل به ما بين وحدة في الغرفة ووحدة في الرُّكن.. لا تعرف من البشر غير امرأة غريبة الأطوار تتحَنَّن عليها بالمتابعة والاهتمام.. رغم كُلّ هذه المُدمِّرات صمدتُ، ثُمَّ تحوَّلت من الدِّفاع إلى الهجوم.. عملتُ وجهًا في منتهى الجمال.. أنظر لتقاطيعه الفاتنة.. أنظر.. أنفي أجمل حتَّى من أنف فريدة.. عيناي أجمل من عينَي لمياء.. أنظر لساقَي.. ملفوفتان مثيرتان. أشهى من ساقَي لولي.. قِصَّة حُبِّنا عظيمة لأنَّك أحببت صُوفيًّا تحديدًا.. البنت التي حَلَّت الرِّوايات جميع مشاكلها.

شقَّ البرق السَّماء.. السُّحب السَّوداء أعتمت الصَّباح.. ثُمَّ فاضت الأمطار شلَّالًا.. لمحته وهو ينظر إليها باندهاش كبير قبل أن يصرخ:

ـ الأمطار يا صُوفيًّا.. إنَّها خطر داهم على أجهزتي الحَيويَّة العارية. أرجوكِ: هيَّا ندخل الغرفة.

لم تعره انتباهًا.. واصلت الكلام:

ـ طمئنِّي أوَّلًا: هل حصلت صُوفيًّا على حبيب أروع من أيِّ حبيب في أيِّ رواية؛ حبيب لن يُخيِّب أملها، وسيكتب لها الرِّواية التي تُخلِّد قِصَّة حُبِّها؟

صرخ:

ـ حاضر.. سأفعل.. لكن إن بقيت هنا دقيقة واحدة أخرى ستفسد أجهزتي كُلّها، وربما أُمحَى من الوجود. لن أكون هنا لأكتب روايات.

وستضيع قِصَّتنا مع زعابيب النوَّة.

اربدَّ وجه صُوفيًّا بأشدِّ ما اربدَّت السَّماء وانطلقت غاضبة إلى غرفتها.. انطلق خلفها يتخبَّط في النَّواطير كالأعمى وقد استهدفت الرِّيح مفاصله المكشوفة.

دخلا الغرفة.. ألقت جسمها على السَّرير.. أغلق الباب ووقف خلفه يلهث فزعًا. الجدران الخَشبيَّة تواصل الطقطقة والارتعاش.. رَصَّة روايات تداعت من فوق المنضدة إلى الأرض فأحدثت جلبة مكتومة. زعقت صُوفيًّا:

ـ على فكرة.. وجهة نظر ريهام في المُصوِّرين صحيحة جِدًّا.. أهم شيء عندكم هو أنفسكم.. لا تُحبُّون حُبًّا حَقيقيًّا.. لو أحببتني حُبًّا حَقيقيًّا لما أصابك كُلُّ هذا الهلع خوفًا على نفسك! هل تظنّ أنَّ عاشقًا حقيقيًّا يمكنه الشُّعور بنفسه في وجود حبيبته! كيف تشعر بوجود النوَّة وأنا معك!

توقَّف عن اللهاث.. لمحته صُوفيًّا وهو يُصوِّب ناحيتها عينَين مذهولتَين.. ثُمَّ رأته يتَقدَّم ناحيتها ببطء إنسان مصدوم.. يجلس على حافَّة الفراش. ويهمس بأسى حَقيقيٍّ:

ـ صُوفيًّا! اعتقدتُ أنَّك تفهمين دوافع خوفي! الأمطار ستُفتِّتني لدرجة بشعة.. إذا تفَتَّت لن أكون مُمتعًا لكِ.. أنا خائف على نفسي لأجلك.

صيحة غراب طَوَّحته العاصفة فاصطدم بأحد أطباق السَّتالايت.

أصَرَّت صُوفيًّا على تصويب نظرة شَكٍّ كبيرة إلى عينَي هارون، فاستدرك:

ـ كم مَرَّة تطلبين مِنِّي أكل قطعة من جسمك وأنا لا أفعل؟ لماذا لا أفعل؟ لأنِّي لا أرغب في إيلامك.

انسابت دمعتان من عينَي صُوفيَّا.. دارت بجسمها وأعطته ظهرها. سمعها تنشج.. نشيجها كأنَّه وشيش موج بحر أيضًا. وسمع همسها بَيِّنًا رغم الصَّخب المصاحب للنوَّة، كأنَّها تلومه:

ـ أنت واع!

واصل صمته فيما ينظر إليها نظرات متسائلة. يحاول استيعاب أمر يصعب عليه فهمه.

ضربت العاصفة الغرفة ضربة عاتية.. كادت الجدران تطير.. الرِّيح اخترقت الشُّقوق لتهاجم صفوف الرِّوايات فانتصبت أغلفتها.. رفرفت أوراقها كطيور مذبوحة، كثنيَّات أوكرديون انهمك عازفًا لرقصة مجنونة.

همست صُوفيَّا:

ـ أنت لا تعرف الحُبَّ يا هارون.. ارحل لو سمحت.

- 25 -

ضغطت مريم مكرم على زِرِّ الجرس فأزَّ أزيزًا رقيقًا. لم يطل الوقت عن نصف دقيقة حتَّى انفتح الباب، وظهر خلف دلفته القَسُّ هارون في كامل هيئته الكهنوتيَّة.. بدا باشّ الوجه جِدًّا.. دخلتْ.. جلست في نفس مكان زيارتها السَّابقة.. دخل (أيضًا) إلى المطبخ ليعود إليها بالصِّينيَّة المدوَّرة وقد انتصبت فوقها كأسٌ كبيرة مملوءة بعصير البرتقال.. جلس نفس الجلسة، بوجه يحمل نفس الابتسامة الرَّائقة، قبل أن يقول:

ـ هذا جَيِّد. أنتِ أجمل كثيرًا في الملابس المحتشمة.

وأردف بسرعة:

ـ أتمَنَّى لو تخبريني عن السَّبب الذي جعلك ترفضين تلك الفكرة القبيحة: فكرة زواج الآب.. وقد ظلَّت عالقة في رأسك فترةً ليست قصيرة؟

في هذه المرَّة مريم أكثر استرخاءً، لا يخالجها أيُّ توتُّر.. فَضَّلت زيارته في ملابس حاجبة، حتَّى أنَّها وضعت طرحة شفَّافة على شعرها المنسدل.. بيت القَسِّ هارون في منطقة شَعبيَّة تعجُّ بالمسلمين، والمسلمون يتَصيَّدون أيَّ تصَرُّف (مهما كان ضئيلًا) ليسارعوا بلصق تهمة ممارسة الجنس بين المَسيحيَّات والقسسة في الكنيسة! وداخل الأديرة! فكيف الحال وهي تدخل (أمام أعينهم) بأزياء مثيرة إلى قَسٍّ يعيش وحيدًا! ومهما اعترضت على الكنيسة (أو على الكهنة) تظَلّ

مَسيحيَّة الانتماء، يسوؤها ذيوع شائعات رديئة عن شعب ديانتها.. كما لا تريد (أيضًا) إشاعة تصوُّر خاطئ عنها في ذهن الأب هارون نفسه؛ فهي (وإن كانت ترغب بشدَّة في ميله إليها) تَوَدُّ لو يكون ميله إليها عاطفيًّا، لا جنسيًّا. لهذَين السَّببَين تحديدًا ارتدت ملابسها الحاجبة.

صوَّبت عينيها بجداريَّة الجحيم المُعلَّقة أمامها (خلف القَسّ).

لم تعجبها النَّبرة التي طرح بها هارون سؤاله، نبرة محايدة، شعرت معها وكأنَّه يزيحها بعيدًا، كأنَّه يستعجلها حتَّى تتكلَّم فتُنهي جلستها وتنصرف في أسرع وقت! لم يبد ذلك منه في الزِّيارة السَّابقة، بالعكس، لقد لفحتها لهفته أثناء وداعها له، وتجَلَّت في عينَيه رغبة صريحة في استعجالها كي تعود سريعًا، دون إبطاء!

«ما لك!».

«لماذا تتأرجحين في فراغ القلق؟!».

«هل سقطتِ في حبائل شبكة الصَّيد التي ألقيتِها له؟!».

جحيم العراة يتألَّق في هذه الجِداريَّة العَبقريَّة، اللوحة لا تعكس الخوف من الجحيم بقدر ما تعكس شغفًا جامحًا بالعري الأنثَويّ. فجميع الأجسام التي تتَلوَّى شواءً باللظى لنساء بارعات الجمال وقاهرات بالفتنة، وكأن الرَّسَّام صريع غوايتهنّ.

ـ لا أدري.. لكن فَكَّرت في أنَّ الآب لم يتزَوَّج حتَّى لا يكون رجلًا طاغية، فتُبقي النِّساء على شغفها به، وفكرت في أنَّه فضَّل اختيار ابنه ذكرًا ربما لأنَّه لم يُحبّ تعريض المرأة لهذه القسوة البشعة التي تَعرَّض لها المسيح.

أردفت بينما ترسم على وجهها ابتسامة باهتة:

ـ أعرف أنَّها تبريرات ربما تكون واهية، لكنَّها أقنعتني، أبي مات حزينًا بسببي، وأُحبُّ العودة لأجل سكينة روحه، حينما يكون الإنسان مُجهدًا يضطر للاستلقاء ولو على حصى مُحمَّى.

تمتم بلهجة تكشف عن رفضه لطريقة تفكيرها:

ـ سكينة روحك أنتِ تبقى الأهم.

نظرت في عينيه.. حالمتان وادعتان وإن ظهرتا رافضتَين.. شعر بتداعي نظرتها فتشَجَّع ليقول:

ـ ليس عليكِ العودة إلى حظيرة المسيح لأجل أبيكِ.. بل لأجل الآب ضابط الكُلّ.. هذا هو الإيمان الصَّحيح الذي سيملأ قلبك بالرَّاحة ويُغلِّف روحك بالسَّكينة.

ـ قلت لك إنَّني مضطرَّة للاستلقاء.. أنا مُجهدَة.

ـ وبعد!؟

ـ لماذا تُصرّ على ارتداء زِيِّك الكهنوتيّ!

ابتسم، قال:

ـ طيِّب.. أنتِ تراوغين.. لكن هل يمكنني التَّكلُّم بصراحة؟

خشَّنت صوتها تقليدًا لصوته وأجابته بنفس ما قاله عندما طرحت عليه نفس السُّؤال سابقًا:

ـ الحقُّ يا «أبونا» أنَّ كرسيَّ الاعتراف لا جدوى من الجلوس عليه لو لم تتكَلَّم بصراحة.

انطلقا ضاحكَين للحظات ثُمَّ صمتا للحظات أخرى قبل أن يبدأ

هارون في الحديث بصوت جاد حاول صبغه بلون المرح:

ـ ارتدي هذا الزِّيّ خصِّيصًا لأواجه فتنتك.. أنتِ فاتنة الجمال حتَّى أنَّكِ تُؤثِّرين في رجل المفترض به ألَّا يتأثَّر.. أنا كاهن أوَّلًا.. شيخ في خمسينيَّات عمره ثانيًا.. لكنَّك أفلحتِ يا هانم في إيقاظ شيطاني الذي اعتقدت أنَّني ألقيتُ به في بئر النَّوم العميق وغرق هناك!

لمست أذنَيها صيحات عصفور كناريا.

لو أنَّها في وضع طَبيعيٍّ لنظرت إلى هذا القَسِّ نظرة ازدراء عميقة؛ فالسَّببَين اللذين ذكرهما للتَّو كعاملَي صَدٍّ هما (نفسهما) داعيا السُّخرية منه، مع ذلك أحَسَّت برفرفة روحها داخل قلبها. كادت تقفز من مكانها لتُلقي بنفسها على فخذَيه وتغمره بفيض قبلة طويلة، لقد شعر بأنوثتها، المرأة تحمل تقديرًا كبيرًا لمن يشعر بأنوثتها، وتقدير المرأة للرَّجل طليعة حبِّها له.

ضبطت نفسها.. مالت برأسها تصطنع الإنصات لهذه الزَّقزقات النَّاعمة التي تسمع صدحها لأوَّل مرَّة وهمست:

ـ عصافير كناريا؟

ـ عصفور واحد.. العصفورة وليفته انتقلت إلى الملكوت قبل يومَين.

ـ فعلًا. زقزقته ممدودة.. يبكي!

ـ أنا لبست الزِّيَّ الأسود حتَّى لا أنسى نفسي.

همست بخجل من يدرك أنَّه بصدد طلب شيء محرج:

ـ ممكن أشوف عصفور الكناريا؟

ـ ممكن طبعًا.

واستدرك ضاحكًا وهو يشير إلى باب جانبيٍّ بدا مفتوحًا في أوَّل الطُّرقة إلى اليسار:

ـ لكن عليكِ قراءة هذه اللافتة المُروريَّة أوَّلًا.

نظرت.. لا ترى سوى باب الغرفة المفتوح.. وليس ثَمَّة لافتات هناك!

قبل بذل أيَّ محاولات للخروج من حيرتها انتبهت إلى أنَّه يمارس هوايته في الممازحة، إذ قال:

ـ تحذير: الطَّريق إلى العصفور يمُرّ بغرفة نوم «أبونا».. هناك منعطف خطير.

انطلقت تضحك باتِّساع صدرها فيما أخذ ينظر إليها سعيدًا بضحكها، من بين دموع استغراقها في الضَّحك لاحظت بريقًا خافتًا لحسرة ومضت في عينَيه؛ لا مراء في أنَّه يتمَنَّى الآن لو كان أصغر سنًّا، ولو لم يكن كاهنًا احترف دهس رغباته.

وقفت تعكس رغبتها الجادَّة في رؤية عصفور الكناريا. وبينما ضحكاتها تأخذ في الفتور قالت:

ـ لا تخش شيئًا.. أعدك بأنِّي سأكون حذرة في أثناء الدَّوران.. سأقلِّل السُّرعة.

نهض بدوره وتحرَّك ناحية الباب باسطًا ذراعه؛ قال:

ـ تفضَّلي.. لا داعي للحذر، فغرفة نوم كاهن وحيد مكان لا ينذر بالخطر.. انظري بنفسك.

لا علاقة لهذا المكان بشيء اسمه غرفة نوم، إنَّه مكتبة.. مكتبة لا

علاقة لها بسلوك بَشريٍّ اسمه النِّظام، ولولا مساحة خالية من الكتب (ظهرت كفِراش يفرد عليه القَسُّ جسمه لينام) لتخيَّلت السَّرير منضدة واسعة توَسَّطت الغرفة.

أدهشها أنَّ الشَّخص الذي صنع هذه العَشوائيَّة الفائقة هو نفسه من رَتَّب أثاث الرِّيسيبشن الفخم ترتيبًا دقيقًا، بالمازورة!

لا وجود لخزانة ملابس؛ مُجرَّد صندوق خَشبيٌّ مرتفع عن الأرض يقوم بمُهمَّة حفظ الملابس، فيما عدا ذلك هناك أربع خزانات كبيرة انفتحت دلفها لتكشف عن مئات الكتب والمُجلَّدات رُصَّت أسوأ رَصٍّ، هذا بخلاف مئات أخرى ملقاة على الأرض هنا وهناك: تفاسير للكتاب المقدَّس.. تراث القبط.. الكنائس والأديرة.. سير شهداء الكنيسة.. علم اللاهوت. دراسات لآباء عظام مثل الأنبا يوأنَّس، والأنبا بيمن، والأنبا متَّاوس.. الأسرار المُقدَّسة للكنيسة.. وعندما لمحت إنجيل برنابا شهقت، فضحك، وقال:

ـ عندي جميع أناجيل الأبوكريفا.. قرأتها كُلَّها.. لكن هذا ليس سبب دخولنا إلى هذه الغرفة: إنَّه العصفور.

رفع ذراعيه وطَوَّح بهما فاردًا أصابع كَفَّيه في حركة مَسرحيَّة وهو يقول:

ـ ها هو.

قفص صغير عُلِّق في الرُّكن القَصيّ من الغرفة (بين الخزانة الأخيرة وملتقى جدارَي الغرفة) مكان مكتوم، اتَّجهت إليه وقد التوت شفتاها بتعبيرات الشَّفقة، همست:

ـ مسكين.. لِمَ تضعه في هذا المكان الضَّيِّق؟

ـ أُهيِّء له عزلة تُحبُّها هذه النَّوعيَّة من عصافير الكناريا.

أصوات الشَّارع تنساب إلى الغرفة من شيش النَّافذة بمنتهى الوضوح.. كلاكسات السَّيارات المنزعجة بالمرور داخل هذا الشَّارع الضَّيق.. ضجيج الأغنيات الرَّديئة التي تبثُّها التَّكاتك.. قرآن ينبعث من مُكبِّرات صوت أُلحِقت بمداخل المحلَّات التِّجاريَّة.. دَقُّ المطرقة الثَّقيلة على السِّنديان في الورشة أسفل البيت.

قال:

ـ مضطر اليوم أروح عابدين.. هناك محلّ طيور مُتخصِّص في هذا النُّوع من الكناريا العاشقة.. لو لم أفعل سيموت هذا العصفور.. لا بُدّ من جلب زوجة بديلة له تصبره على بلوته، وإلَّا مات كمدًا.

سحبت ناظريها من فرجات سلك قفص العصفور الحزين وألقتهما في عينَي هارون، وقالت:

ـ أنا لا أُصدِّق ما قلته منذ قليل.. ملامح وجهك ورشاقة روحك تقولان إنَّك في ثلاثينيَّات عمرك، لا في الخمسينيَّات!

ابتسم ابتسامة واسعة وقال:

ـ أفهم ذا على إنَّه غزل!؟

بادلته الابتسام وهي تنزل بنظراتها إلى أكوام الكتب، وسمعته يردف قائلًا:

ـ وأيضًا لا يقولان إنِّي..

امتقع وجهه بشكل مباغت ادهشها.. ذبل فورًا.. شعرت به وكأنَّه كان مملوءًا بالهواء قبل أن يفرغ منه فجأة. أحسَّت بأنَّه توَقَّف عن استكمال جملة في غاية الخطورة.. عندما رأى روعها يتفَجَّر في عينَيها قال:

ـ الورم جاب آخره.. قد تنتهي الحكاية والرِّواية خلال أيَّام قليلة.

بوغتت.. بحلقت عينَيها.. صقيع ضرب قلبها.. وشيش صاعق شرخ طبلتَي أذنَيها.. دارت الأرض تحت قدميها.. داخت.

فيما تتهاوى شعرت بذراعَيه يتلقَّيانها.. يحضنانها ويريحانها في مساحة السَّرير الفارغة من الكتب. ثُمَّ يحلّ ظلام ممزوج بطرقات الحديد على السِّنديان.

- 26 -

لم تتمكَّن السَّيِّدة مريم مكرم نعيم من الاستمتاع بحالة الهدوء النَّفسيّ المُستجدَّة أكثر من بضع ساعات لتعود (بقوَّة) إلى حالتها المضنية من الارتباك والشَّتات الذِّهنيّ. كان المشهد الذي وقعت عليه عيناها بشعًا، كما كان ما طلبته صُوفيًّا ذا دلالات مخيفة وبائسة.

«البنت تجنّنت!».

كَرَّت قدماها درجات السُّلَّم بسرعة لم تعهدها من قبل.. دخلت شَقَّتها.. هرولت إلى غرفتها.. ألقت جسمها في السَّرير واستغرقت في انتحاب هيستيري.. كانت رأت وسادة صُوفيًّا مُمدَّدة في فراشها طوليًّا، منقوشة بأقلام فلوماستر مختلفة الألوان، مرسومة رجلًا عاريًا تمَزَّقت أكثر مساحات جلده. وجهه جمجمة تحوي عينَين مرعبتَين.. عظام قفصه الصَّدريّ تحاصر قلبًا رُسم بلون ذَهبيٍّ.. الدِّماء تسيل من جانبَي الجسد.. أسمته هارون! وتريد طعامًا (لها، وله) منذ الغد!

«يا حسرة عليكِ يا بنتي!».

«أنا السَّبب».

«أم أنَّها الرِّوايات فعلت ذلك بالبنت! آه من الرِّوايات».

سواء كانت الوحدة أو الرِّوايات (أو كلاهما معًا) سبب تدهور عقل صُوفيًّا إلَّا أنَّ السيِّدة مريم مكرم نعيم تُصرّ على أنَّها السَّبب المباشر

لكُلّ الكوارث التي وقعت على البنت المسكينة صُوفيًّا، هي ولا أحد غيرها، وإن كانت حتَّى هذه اللحظة لا تفهم كيف!

هذا ما جرى: تتذكَّر أدَقَّ التَّفاصيل رغم مرور خمس وثلاثين سنة أو أكثر قليلًا، ومهما حكت عن هذه التَّفاصيل فإنَّها مُستعدَّة للجزم بأنَّ أحدًا لن يفهم شيئًا!

لم يكن في أفعال القَسّ هارون ما يشير إلى اقتراب موته، كان مرحًا جِدًّا.. مرحًا بشكل طَبيعيٍّ لا مُتكلَّف ولا مُصطَنع، لم تصدر منه تنهيدة حزن واحدة على الدُّنيا التي كان يعلم أنَّه سيفارقها بعد أيَّام معدودة، لم يعترض روحُه على مشيئة الرَّبِّ يسوع المسيح، بل تكَلَّم عن ضرورة نزوله لشراء أنثى كناريا لعصفوره المكلوم!

كان هارون طَبيعيًّا لدرجة ملأت مريم قناعة بإنَّه يُهيِّء لها فخًّا لاصطيادها!

لذلك بوغتت بما أخبرها به.. اختنقت فجأة فانكتم نفسها.. آخر ما شعرت به هو سقوطها بين ذراعيه، ثُمَّ محاولته إراحتها في السَّرير المزدحم بالكتب، بعدها فارقت صدمة الواقع لترحل إلى الغيبوبة!

لا بُدَّ وأنَّ ما جرى كان خيالًا.. هلاوس غيبوبة.. أو رغبة دفينة أطلقها الكبت في صورة رؤيا مَناميَّة، أيُّ تبرير له علاقة بعالم افتراضيٍّ ما، لأنَّ ما عاشته من رابع المستحيلات حدوثه واقعًا، وقد تأكَّدت من ذلك بالفعل!

رأته يُمدِّد جسمها على السَّرير برفق قبل أن يدفع بسرعة أكوام الكتب عن الفراش لتسقط إلى الأرض، ثُمَّ يفرد طوله إلى جوارها.

يلتصق بها.. يُمرِّر ذراعه أسفل رقبتها، ويحوط خصرها بذراعه الأخرى.. يَضمّها إلى صدره بحنان عاشق.. طرحتها الرَّقيقة انسدلت إلى الخلف.. دَسَّ أنفه في منابت شعرها.. شَمّ بعمق. أسبل عينَيه ليحبس عبير العطر قبل إطلاقه زفيرًا ملتهبًا بشعور نَاريٍّ لطيف.. شعور ملتهب غاية في الرَّوعة. أحسَّت بموجات روعته تضرب ملامح وجهها كجناحي فراشه؛ وتسمعه يهمس في أذنها بنبرة أكثر عمقًا وثقة، أقوى ذكورة: «الأنثى أوَّل رسول يدعو إلى دين المتعة من أجل الحياة».

ثُمَّ يعَضّ أرنبة أذنها عَضًّا مثيرًا.. أعجبتها هذه الملحوظة: «الأنثى أوَّل رسول».

«فعلًا الأنثى أوَّل رسول أُرسِل إلى آدم بالمتعة!».

أرادت الاستفاقة كي تشكره على الملحوظة البديعة التي لم تنتبه إليها في أيِّ وقت سابق، ربما لو كانت انتبهت إليها لما تعاركت مع الآب ولا مع الأب هذا العراك الطَّويل.

دغدغت العَضَّة الرَّقيقة جسمها ففَضَّلت البقاء في حالة النَّوم لتواصل معايشة هذا الحلم السَّاحر.

مَدَّ يدًا إلى أعلى صدرها ومسح رقبتها.. دفع بيده إلى ثديَيها. في الأثناء قَبَّل شفتَيها قبلة طويلة.. أنفاسه تعبق ببخور لم تشُمّ عبقه في غير بهو الكنيسة!

كان البخور مُسكِّنًا هناك، مُهيِّجًا هنا!

تشعر بثديَيها يُعذِّبانها، تكوَّرت فيهما حمم الرَّغبة، وأنامله تعمل

على إنقاذها، تُليِّن الحلمتَين ليفتحا فُوَّهتَيهما طريقَين للتَّنفيس.

يهمس: «حوَّاء أوَّل رسول. ولم يرسل الآب رسولًا بغير إنجيل.. كُلُّ الآباء قرأوا إنجيل حوَّاء، وسحرهم، لكنَّهم رفضوا ضَمَّه؛ حتَّى رفضوا اعتباره أحد أناجيل الأبوكريفا غير القانونيَّة».

إنَّها تسمع كلامًا جادًّا جديرًا بإخراجها من حالة الحلم الشَّبقيّ؛ وكانت ستفعل.

كانت ستنهض معتدلة لتستمع باهتمام يليق بجدِّيَّة الموضوع، لكن لعقًا كهربيًّا تعرَّض لحلمتَيها رَجَّ جسمها رَجًّا.. تيَّار لا يخطف الممسوس به نحو الاستفاقة، بل يلقي به في إغماءة الخدر، لذلك فَضَّلت الاستلقاء بكامل التَّراخي، والاستسلام لجحافل اللذة التي اعترتها؛ رأته من شروخ انكسارات عينَيها منهمكًا في مَصِّ حلمتَيها.

لم تتمَنَّ يومًا معاشرة قَسٍّ معاشرة جِنسيَّة. تشمئزّ من لحاهم المشعثة، ومن شواربهم المُبعثرة على شفاههم كذيول الكلاب. شوارب تمنع أيَّ لذَّة من الانطلاق!

كيف يمكن للقَسّ تقبيل امرأة بشفتَين حبيستَي لُكَّة من الشَّعر المتنافر؟!

هارون مختلف؛ حليق الذّقن.. مُهذَّب الشَّارب.. يجيد النُّكتة والاستلطاف.. يعرف كيف يخترق قلب المرأة ويسقطها بأوهن فخاخه! ها هي ساقطة في الجنس معه، يعالج أبوابها التي لم تُفتح من قبل إلى أن صدأت مُفصَّلاتها!

لم يكن مستلقيًا في طولها.. لقد استعلى.. امتطى فارعها.. وأولج

المفتاح فتأوَّه المغلاق مستجيبًا للفتح.. المفارقة المضحكة هي أنَّ ثيابها المُتحفِّظة أُنتهكت، بينما ثيابها المُنتهكَة حُفظِت! يد الله تعمل العجائب!

بعد نوبة هجوم جِنسيٍّ وعر رأت هارون يجلس على سِمَّانتَيه بين وركَيها المحاصرانِه.. مفتاحه لم يزل مُتشنِّجا داخل قفلها. وجبينه يمتح عرقًا كالزُّجاج المجوهر.. قال: «قرأت إنجيل حوَّاء أكثر من مائتَي مرَّة. إنجيل صغير لا تتَعدَّى صفحاته خمسين صفحة، في إحدى آياته تقول حوَّاء: لم يعرف الآبَ من لم يعرف امرأةً * أنهار الجَنَّة بين يدَي آدم وآدم عطشان لأنَّ كأس المرأة لم يكن بعد؛ أنا عرفت الآب الآن يا مريم، والآن ارتويت».

مدَّت ذراعيها وأحاطت عنقه بيديَها. جذبت رأسه إلى رأسها.. غنجت:

يا حبيبي.

اعتصرا لدقيقتَين قبل أن يتضادَّا جِدًّا. يريد الدُّخول فيها بعنف. تريد الدُّخول فيه بعنف. تزلزلا قبل أن يهمدا مثل ميِّتَين؛ انزلق من فوقها إلى جانبها، ورأته يغمض عينَيه لثوان، وينهض.

عارٍ تمامًا!

«متى خلع ملابسه السَّوداء؟!».

جسمه بَضٌّ أبيض مرمَريٌّ كأنَّه منحوتة رومانيَّة أخَّاذة.. يخطو بين أكوام الكتب مثل راع سماويٍّ يسوق سُحبًا.. لا تبدو عليه أعراض خجل.. موزته مشدودة مثل قلم، وطويلة كعصا الرَّاعي.. يتَّجه إلى

الخزانة الوسطى.. يدُسّ يده داخلها ويخرجها قابضة على كعب كتاب قديم توشك العتاقة على التهامه، ويعود إلى التَّمطِّي بجوارها.. تقرأ عنوانًا بدا مكتوبًا بماء ذهب كاد ينمحي: «إنجيل حوَّاء».

همست:

على فكرة، ينفع يكون عنوان رواية.

قال فيما يُقلِّب الصَّفحات للوصول إلى صفحة محدَّدة: «يبدو أنَّك تحبِّين قراءة الرِّوايات!».

همست:

جِدًّا.

تَهلَّل وجهه وهو يقول: «ها هي الصَّفحة المنشودة، اسمعي: ... فَلَمَّا امْتَلأَ الآَبُ بِالرَّغْبَةِ * وَحَصَلَ عِنْدَهُ اشْتِهَاءُ * فِي الحِينِ اشْتَاقَتْ نَفْسُهُ إِلَى الوَنَسِ* وَفِي الوَقْتِ رَغِبَ نِدّاً يُنَادِدْهُ * وَنَظِيراً يُنَاظِرْهُ * وَكُفُؤاً يُكَافِئْهُ * فَقَالَ الْكَلِمَةَ الَّتِي نَطَقَ بِهَا فِي الْبَدْءِ فَكَانَت الرَّبَّةُ * فَلَمَّا عَرَفَهَا كَرِهَ الصَّمْتَ وَالظُّلْمَةَ وَالمَوْتَ * وَأَحَبَّ الأَصْوَاتَ وَالضِيَاءَ وَالحَيَاةَ * فَخَلَقَ العَالَمَ * وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ فِي الكَوْنِ خَلَقَ زَوْجاً يَعْرِف أُنْثَاه * وَخَلَقَ الْكُلَّ وَضَبَطَهُ بِمَقَادِيرٍ مِنْ ذَرِّ الْحُبِّ الَّذِي انْتَثَرَ مِنْهُ وَهُوَ يُسَامِر أَنِيسَتَهُ * فَنَبَتَتْ مِنْهُ كُلُّ أَشْجَارِ الْفَوَاكِه وَالْخُضَر * إِلَّا شَجَرَةٌ نَبَتَتْ مِنْ ذَرِّ بُغْضٍ تَنَاثَرَ مِنْ الشرِّير وَهُوَ يَعْرِف شيطانته * قَالَ الآَبُ لِآَدَمَ: لاَ تَأْكُلَ مِنَ الشَّجَرَةِ الخَبِيثَةِ وَكُلْ مِنْ كُلِّ الأَشْجَارِ الطَّيِّبَةِ * فَأَكَلَ آَدَمُ مِنَ الشَّجَرَةِ الْخَبِيثَةِ وَترَكَ كُلَّ الْأَشْجَارِ الطَّيِّبَةِ * فَمَاتَ بُغْضاً *

وَكَانَ الْآبُ قَدْ أَحَبَّ لَهُ الْحَيَاةَ حُبّاً *.....».

رمقها بطرف عينه فطالعته ملامح الانبهار تتنَطَّط في وجهها؛ فتَصوُّرها عن وجود علاقة بين الآب وربَّة أنثويَّة ليس تَصوُّرًا أسطوريًّا إذن! إنَّه تَصوُّر حَقيقيٌّ يُعضِّده إنجيل ألقاه الرُّوح القدس على قلب حَوَّاء (أمُّ النِّساء وأوَّل رسول) كتبه حَواريٌّ مجهول.

لماذا لم يحرص ذلك الحَواريُّ على تدوين اسمه كما دوَّن كُتَّاب الأناجيل أسماءهم؟ أم تراه دَوَّنه فتَعرَّض لمحو مُتعمَّد حتَّى يضعف أثر هذا الإنجيل، قبل نجاحهم في إخفائه تمامًا لتكتمل المؤامرة الذُّكوريَّة ضدَّ المرأة؟

سمعت هارون يقرأ وفَوح عطور فضاء الكنيسة ينبثق من مسام جسمه العاري.. عصفور الكناريا أطلق صيحة باكية.. والقرآن يتَسلَّل من شيش الشُّبَّاك: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾

في الإصحاح التَّاسع من هذا الإنجيل آيات بديعة عن طريقة الخلق، اسمعي: «... رَأَى الرَّبُّ أَنَّ الرَّبَّةَ أَبْهَجَتْهُ * وَاسْتَطْعَمَ الحُبَّ حُلْواً فَقَالَ لِمَ لَا يَكُونُ كَوْنٌ يَسْتَطْعِمَ الحُبَّ كَمَا اسْتَطْعَمْتُه * وَرَأَت الرَّبَّةُ أَنْ تَشُدَّ أَزْرَهُ فَصَارَ يَصْنَع طِيناً * عَمِلَ طِيناً لِلْمَخَالِيقَ الآدَمِيَّةِ * وَعَمِلَ طِيناً لِلمَخَالِيقَ الحَيَوَانِيَّةِ * للزُّروع عَمِلَ طِيناً مَخْصُوصاً * ولِلجِبَالِ طِيناً * مِنَ الطِّينِ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ * وَوَضَعَ ذَرَّ الحُبِّ فِي أَطْيَانِ الكُلِّ إِلَّا آدَمَ * يَأْكُل آدَمُ الكُلَّ لِيَجْمَعَ حُبّاً يَضَعهُ فِي قَلْبِهِ * فِي ثَمَرَةِ التِّينِ مِئَةُ ذَرَّةِ حُبٍّ * وَفِي ثَمَرَةِ زَرْعِ الفُولِ ذَرَّةُ حُبٍّ * فِي لَحْمِ طَيْرِ الحَمَامِ مِئَةُ ذَرَّةِ حُبٍّ * وَفِي لَحْمِ البَقَرِ ذَرَّةُ حُبٍّ * وَفِي ثَمَرَةِ شَجَرَةِ الشرِّير أَلْفُ ذَرَّةِ بُغْضٍ

* وَهِيَ الشَّجَرَةُ الَّتِي....».

نَحَّى الإنجيل جانبًا. مال بوجهه ناحية صدغها مستنشقًا بعمق. همس في أذنها: «أراهن أنَّ أباكِ وأمَّك أكلا كيلو كاملًا من ثمار التِّين قبل دخولهما في السَّرير لينجباكِ. كلُّك يفوح برائحة حُبٍّ».

غارقة في الاندهاش بسبب ما ورد في هذا الانجيل العجيب: «إنجيل حَوَّاء». انفصلت تمامًا عن نشوة الجنس وعادت قليلًا قليلًا إلى الحالة الطَّبيعيَّة للواقع.

عندما اكتملت عودتها سارعت بالقفز من الفراش كي ترتدي ملابسها.

«إين ملابسي!؟».

دارت حول نفسها دورة كاملة تُوزِّع نظرات محتارة بحثًا، فلم تجدها. رفعت عينَيها إلى هارون، فلم تجده في السَّرير.. وجدته منتصبًا أمامها في كامل زِيِّه الكَهنوتيِّ فيما ينظر إليها بإشفاق. همس بنبرة مُشجِّعة:

ـ لا تقلقي.. أنتِ بخير.

ـ ملابسي؟

فتح فمه، ودَوَّرعينَيه في محجريهما كالمندهش، وضحك يُلطِّف الجوَّ، وقال:

ـ والمسيح الحيّ ما لي دعوة بملابسك!

«هلوسة! صُوفيًّا تهلوس. رسمت الوسادة رجلًا تأكله! لِمَ تأكله؟!».

غادرت مريم مكرم نعيم بيت القَسّ هارون ولم تعد إليه أبدًا.

مات.

ذهب أصدقاؤه (من الكهنة) إليه صباحًا فوجدوه ملقىً على أكوام الكتب أمام قفص فيه عصفورا كناريا يزقزقان بمرح، مرتديًا كامل زِيَّه الكهنوتيّ، كأنَّه في انتظار القيام بواجباته الكَنسيَّة في سماع الاعترافات.

بعد شهر من الحزن أحسَّت باختناق يتكاثف داخل رئتَيها.. جلد ثديَيها يشتَدّ ويؤلمها.. موجات من القَيء تداهمها بعنف. لجأت إلى الطِّب.. بعد الكشوفات الدَّقيقة قيل لها: «أنتِ حامل».

- 27 -

في ضحى رائق هبطت السيِّدة مريم مكرم نعيم درجات السُّلَّم هبوطها اليَوميّ المعتاد. هذه المَرَّة أشَدّ ما تكون عيناها احمرارًا لفرط ما أصاب قلبها من كمد، تمنع عنهما الدُّموع بقدرة شديدة. لم تكن ترغب في أن يرى عيد البَوَّاب انهيارها.

بينما تهبط درجات السُّلَّم حدَّثت نفسها: «لا تلومي الآب ولا الابن. لا تلومي أحدًا. لأنَّ أحدًا لم يجبرك على البؤس، مريم المرآة القبيحة قالت لك الصَّحّ. تفتيشك اللحوح الدَّقيق عن أسباب تعاستك أدَّى إلى المزيد من تعاستك، لو ألقيتِ كُلَّ شيء خلف ظهرك! لو أصغيتِ السَّمع لأعماقك الصَّادقة وهي تقول لك: العالم خطيئة كبيرة، والخطاة حقيقيُّون أكثر من الصَّالحين، يا مريم مكرم نعيم: أنتِ غبيَّة.. كيف لم تفهمي المسيح عندما قال: أُحبُّ الخطاة».

«طيِّب.. عشتُ تعيسة.. نفسي أموت سعيدة».

وصلت الطَّابق الأرضي.

مدخل العمارة المباركة التي بناها المقاول المقدّس فرج أقلاديوس، عيد يجلس على أريكته النَّاحلة الماحلة يرشف الشَّاي من كوب زُجاجيٍّ مريض، رآها.. لم يُحرِّك ساكنًا. تلقي تَحيَّة مقتضبة بصوت خفيض وتمضي.. حتَّى لم يُكلِّف نفسه أن يسألها (ولو من

باب المجاملة) عن السَّبب الطَّارئ الذي اضطرَّها للنُّزول مُبكِّرًا عن موعدها اليَوميِّ المعتاد، فهي (بالنِّسبة له) مُجرَّد مُستأجِرة ثقيلة الدَّم. قبيحة المنظر.. جديرة بالتَّجاهل.. خصوصًا أنَّ عقلها خفيف للغاية. تكاد تكون مجنونة!

ـ صباح الخير.

ـ صباح الخير.

بدلًا من أن تَتَّجه إلى باب العمارة اتَّجهت إليه.. اقتربت منه.. قالت بصوت خفيض مرتبك:

ـ أنا آسفة.. لكن أنا..

بينما تمدّ إليه يدها بميدالية مفاتيحها استطردت:

ـ خذ.. مفتاح الشقَّة ومفتاح المَحلّ.

ترك الشَّاي وهَبَّ واقفًا.. قال:

ـ خير يا أُمّ صوفيا!

أخرجت من حافظتها الصَّغيرة رزمة نقود وَرقيَّة كبيرة.. قدَّمتها له. أخذها وهو ينظر إليها مبهورًا.. قالت:

ـ هذه نقود لتشتري بها حاجيات لصُوفيَّا. أرجوك ارعها جيِّدًا.

زعق وهو يعيد إليها رزمة النُّقود:

ـ يا ستّ أنا ما لي بصوفيا !

انسابت دموعها. قالت:

ـ وأنا ما عندي أحد يرعاها. أنت صَعيديٌّ.. لا يمكن تقبل تترك بنتًا في حالتها دون رعاية.. البنت ذبلت جِدًّا وأوشكت على الموت..

هذه نقود كثيرة على فكرة. أنا مُتأكِّدة من أنَّ صُوفيًّا لن تستنفد منها غير القليل.. الباقي كُلُّه لك.

لم يرها منهارة هكذا قبل ضحى اليوم، فصعب عليه حالها.. قال بشهامة مباغتة:

ـ خلاص.. لن آخذ منكِ نقودًا.. سأرعاها مجَّانًا وأجري على الله.

بوغتت بشهامة عيد، فتَهلَّل وجهها فرحًا.. ما قاله انفراجة واسعة بعد ضيق هصور، فقالت بجزل:

ـ مُتشكِّرة جِدًّا يا عمّ عيد.. مُتشكِّرة جدًّا جدًّا.. لكن ضروري تأخذ الفلوس.. اصرف عليها والباقي لك.. أرجوك. رَيِّح قلبي.

لوى شفتَيه وأخذ الرُّزمة بفتور.. وسألها:

ـ أنتِ مسافرة سفرًا بعيدًا؟

هزَّت رأسها بما يُؤكِّد له صِحَّة تَوقُّعه.

عادت إلى حجرتها.. استلقت في فراشها.. قَرَّرت إنهاء حياتها.. فَكَّرت في أنَّ الرَّبّ نسي أن يخلق السَّلام قبل استراحته.. وربما هَمَّ بخلقه بعد أن قام من استراحته ثُمَّ رآه شيئًا ليس ذي جدوى! للرَّبّ مفاهيم غير مفاهيم الإنسان.. حتَّى عندما ألبس ابنه رداء البشريَّة لم يحمه بالسَّلام.. الرَّبُّ حرص على خلق الخوف.. والخوف حزن. وقد حزنت السَّيِّدة مريم مكرم نعيم طويلًا وكثيرًا بمحض إرادة الآب ضابط الكُلّ، وبمحض إرادتها قرَّرت عدم انتظار قدر رَبٍّ نسي السَّلام وتذَكَّر الخوف، وأن تبادر إلى الموت بسعادة.. ستقهر نفسها قهرًا لفعل ذلك، كما قهرت نفسها قهرًا للاقتناع بأنَّ الآب احترم الأنثى بأكثر مِمَّا احترم

الذَّكر! ما الذي يمنعها من أن تموت سعيدة! ألم تهتدي أخيرًا (ليلة أمس) إلى الاستنتاج الذي ملأ فؤادها بالرَّاحة، بل ملأه بما هو أعمق من الرَّاحة.. ملأه بالفخر.. لا.. بما هو أعمق من الفخر.

لقد امتلأت ليلة أمس بالقداسة!

نعم.. اكتشفت أنَّها (بشكل ما) نسخة من العذراء.. أمُّ النُّور.. عاشت السَّيِّدة مريم العذراء حياة قاسية بتولًا فوُهِبت المسيح دون زرع بشر. وعاشت السَّيِّدة مريم مكرم نعيم حياة قاسية بتولًا فوُهِبت صُوفيًّا دون زرع بشر!

انقضى النهار. استهلكته في التَّزيُّن. أصابع الرُّوج مُلوَّنة بإبهار.. تنثر البودرة على خَدَّيها بفرشة لها شعر أنعم من الحرير.. تنظر في المرآة باسمة.. لاحظت أنَّ مريم المرآة القبيحة لم تظهر.. هل كانت مريم القبيحة لقطة من لقطات فيلمها الحزين، تظهر فقط مع دوران بكرته!

جاء الليل. فردت جسمها في سريرها.. همست:

ـ كيريااليسون.

أخذت تلهج بها بحرارة فيما قلبها يرجو الله بحرارة أن تعبر إلى الملكوت بسلام.. أو بالأحرى: تعبر دون حزن.

لن تكون حزينة.. تشعر بأنَّ الله استجاب لها.. ها هو يضع في قلبها أملًا مُقدَّسًا: «إنَّ شيئًا عظيمًا سيتَحقَّق لصُوفيًّا كما تحَقَّق للمسيح».

ـ كيريااليسون.

أشجار تين وتوت.. طفلة يجرّها قَسٌّ أسود كالغراب ويُعلِّقها على صليب ضخم مغروس في قِمَّة جبل نتن الرَّائحة.. سوط يقطع جلدها

مثل سكِّين حادَّة النَّصل.. امرأة لحيمة بيضاء تفُكّ وثاقها وتفِرّ بها في الليالي السَّوداء.. قطارات هائجة بالغبار.. دقُّ مطارق ثقيلة على سنديان حديد. نساء يهاجمن أُمَّها ويأمرنها بترك حارة في مكان اسمه البساتين.. أمُّها صُوفيَّا مسيحيَّة فاتنة الجمال ووحيدة في حارة تعجّ برجال مسلمين لا تفتر آمالهم في الزِّواج من مسيحيَّة فاتنة الجمال وهدايتها إلى الإسلام! هروب.. كيريالیسون. قطارات هائجة.. ماكينة خياطة تتكتك.. بحر.. إسكندريَّة. أذان الفجر الكئيب.. كنيسة مريم العذراء.. المقاول فرج أقلاديوس.. هارون.. هارون.. هارون.. إنجيل حَوَّاء.. عصفور الكناريا.

قبل أذان الفجر (بقليل) بينما روح السيِّدة مريم مكرم نعيم يُحلِّق صاعدًا إلى الملكوت ارتعدت صُوفيَّا وهي ترى هارون ينهض فزعًا من جوارها (هيكلًا عَظميًّا مَحشوًّا بأجهزته الحيَويَّة) وينطلق ناحية باب الغرفة صارخًا:

ـ ماتت.. أُمِّي ماتت.. ماتت.

قفزت صُوفيَّا خلفه.. جرت عارية.. ساقاها مغريتان جِدًّا حتَّى وهما في حالة ارتباك!

يجري إلى الرُّكن بخطوات واسعة.. يعتلي السُّور.. زعقت:

ـ هارون.

النَّوارس الملعونة لا تكفّ عن صياحها الشَّبيه بعزف الكلارنيت الحزين؛ والقمر ساطع الوحدة.

قفز هارون إلى الفراغ.

ارتمت صُوفيًّا بصدرها على حافَّة السُّور علَّها تلحق بساقَيه فتنقذه من سقطة الموت.. لم تنجح.. فأخذت تنظر إليه مدهوشة.

إنه يترنَّح.. يتأرجح في الهواء مثل وردة انفلتت من باقتها!

عوت مثل كلب يسمع أذان الفجر الكئيب:

ـ هارون.

- 28 -

يلقي عيد البَوَّاب نظرة سريعة على أطباق السَّتالايت المنتصبة على نواطيرها تنظر إلى السَّماء حيرانة، يعرف قِصَّة كُلّ طبق من هذه الأطباق: متى رُكِّب. والأسرة التي تمتلكه، والأحوال المَعيشيَّة لهذه الأسرة بالتَّفاصيل الدَّقيقة.

الشقَّة الوحيدة التي لم تمتلك طبقًا منها هي شَقِّة السَّيِّدة المَسيحيَّة المجحومة مريم مكرم نعيم.. المرأة الفقر التي لبدت في العمارة كالخُفَّاش لعشرات السِّنين.. المرأة التي أشاعت الغَمَّ فيها لعقود.. المرأة القبيحة المُحطَّمة تنزل السُّلَّم بجميع أطرافها الأربعة مثل عنكبوت.. المرأة المجنونة غريبة الأطوار.

«غارت في داهية».

الغرفة الصَّغيرة المنشأة من ألواح الخشب المتقاطعة.. عتيقة.. تفوح منها رائحة العزلة أشبه ما تكون برائحة الميكروكروم.. تَقدَّم ناحية بابها.. مغلق بقفل صغير.. أخرج ميدالية مفاتيح المرأة وِشّ الفقر الكئيبة.. نكت طرف أحدهما في مُؤخِّرة القفل فانفتح بسهولة.

قِطَّة بيضاء غزيرة الشَّعر مَقعيَّة على حافَّة السُّور تراقبه فيما يُلعِّب الهواء شعرها.

فتح الباب فهبَّت رائحة الميكروكروم في وجهه.. سَدَّ منخريه

بسبَّابته وإبهامه.. خطى إلى الدَّاخل بحذر.. طالعته منضدة رُصَّت عليها مئات الكتب، وتحتها مئات أخرى.. على الجدار (أعلاها) ثُبِّتت صورة للمسيح في إطار كالح، كُتِب أسفلها: «من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فِيَّ وأنا فيه».

سرير صغير قديم. تمَطَّت (في وسطه) وسادة بيضاء طويلة رُسِمت بأقلام الألوان بنتًا شابَّة لها وجه بالغ الدَّمامة والقبح. مشقوق الشِّفة العليا. الشِّفة السُّفلى مُدلَّاة. ذراعها الأيسر مُبتَسر النِّمو. لا سيقان لها.

الجيزة

١٥ سبتمبر ٢٠٢٠